

محاضر رقم 01: النظرية التفاعلية الرمزية المعاصرة

تمهيد

أولاً: الافتراضات المنهجية والابستمولوجية للنظرية التفاعلية الرمزية

ثانياً: مراجعة نقدية للنظرية التفاعلية الرمزية

ثالثاً: تقييم الانتقادات

رابعاً: نسخة بنيوية من التفاعلية الرمزية

خامساً: أسس التفاعلية الرمزية المعاصرة

تمهيد:

تُعدُّ النظرية التفاعلية الرمزية إحدى النظريات المعاصرة في علم الاجتماع، وتعود جذورها التأسيسية إلى جورج هربرت ميد، ثم عملت مجموعة من الباحثين على تطوير فرضياتها وأطرها الإستيمولوجية، مثل هوارد بيكر. لذا، سنحاول في هذه المحاضرة أن نستعرض أهم الأفكار الجديدة التي طرحتها التفاعلية الرمزية المعاصرة.

أولاً: الافتراضات المنهجية والابستمولوجية للنظرية التفاعلية الرمزية

1-سؤال المنهج في التفاعلية الرمزية:

- لا يوجد منهجٌ واحد ووحيد للتفاعلية الرمزية. يتفق العاملون في هذا الإطار على أن التفسير الكافي للسلوك الاجتماعي يجب أن يتضمن وجهات نظر المشاركين في التفاعل.
- يُعدُّ التفاعل الرمزي منهجًا في علم الاجتماع وأحد المناهج الرئيسية الثلاثة في علم النفس الاجتماعي، من خلال دراسة الطرق التي تؤثر بها البنى الاجتماعية على الأفراد والتفاعل، والتأثير المتبادل للأفراد والتفاعل على البنى الاجتماعية.
- إذا كانت "النظرية" تعني تقديم تفسير للظواهر الاجتماعية يمكن تقييمه من خلال الأدلة التجريبية، فإن النظرية التفاعلية الرمزية لا تفي بهذا المعيار، حيث تقدم منظورات حول الحياة الاجتماعية ومفاهيم تشير إلى ما تعتبره هذه المنظورات مهمًا لتفسيرها.

2- الجذور التاريخية لنشأة التفاعلية الرمزية

- يُعدُّ الفلاسفة الأخلاقيون الاسكتلنديون في القرن الثامن عشر والفلاسفة البراغماتيون الأمريكيون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولا سيما ويليام جيمس وجون ديوي، من أبرز رواد هذه النظرية. وبالأخص الفيلسوف وعالم النفس جورج هربرت ميد، بشكل مباشر في تطور النظرية التفاعلية

الرمزية، وكذلك بهيربرت بلومر وعلماء الاجتماع الآخرين في جامعة شيكاغو وطلابهم في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى.

- ثمة تباين كبير بين مؤسسي التفاعلية الرمزية التقليدية، ومع ذلك، يميلون إلى يتقاسمون تصورات مشتركة عن الإنسان والمجتمع والعلاقة بينهما، وطبيعة الفعل والتفاعل الإنساني، فالمجتمع عبارة عن شبكة من التواصل أو التفاعل، والتفاعل رمزي؛ يتم من خلال المعاني التي تتطور في التفاعل نفسه.

- يستخدم الأفراد رموزاً في تفاعلهم، ويتواصلون من خلال هذه الرموز. والمجتمع هو محصلة هذا التفاعل، وتُعد الحياة الاجتماعية عملية ديناميكية، فالمجتمع ليس كياناً ثابتاً، بل هو في حالة تكوين وإعادة تكوين مستمرين عن طريق تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض.

- يكتسب الأفراد معاني في سياق التفاعل الاجتماعي ومن خلاله، فلا يمتلك أي من المجتمع أو الفرد واقعاً يسبق الآخر أو يتفوق عليه، فالمجتمع بوصفه شبكة من التفاعلات، يُنشئ الأفراد؛ ولكن أفعال الأفراد تُنشئ المجتمع من خلال التفاعل.

- إن القدرة الرمزية للإنسان تعني امتلاكه عقلاً وقدرة على التفكير، أي أنه يتعامل مع الرموز داخلياً، فهو قادر على التفكير في ذاته، والاستجابة لها بشكل انعكاسي، ومن خلال ذلك يكتسب هويةً تتشكل بفعل العملية الاجتماعية.

- تتضمن هذه الصور فكرة أن البشر؛ أفراداً وجماعات، فاعلون ومبدعون، وليسوا مجرد مستجيبين للقوى البيئية الخارجية. فالبيئات التي يتفاعلون فيها ويتصرفون هي بيئات رمزية؛ والرموز المرتبطة بالبيئات البشرية وغير البشرية تُنتج من خلال التفاعل، ويمكن التلاعب بها أثناء هذا التفاعل.

3- الطريق إلى نظرية التفاعلية الرمزية

- يُعدّ هيربرت ميد الشخصية الأكثر تأثيراً في تشكيل التفاعلية الرمزية، سواءً كانت تقليدية أو بنيوية، بينما يُعتبر هيربرت بلومر الصوت الأبرز في التعبير عن التفاعل الرمزي الذي تُشكّل النسخة البنيوية رد فعلٍ عليه.

- إنّ مبدأ ميد الأساسي البدء بالتحليل النفسي الاجتماعي من خلال العملية الاجتماعية، استنباط العقل والذات من المجتمع دون افتراض وجود ذات مُسبقة، فالتواصل ضروري لبقاء الإنسان والتواصل بشأن حلول المشكلات المتعلقة بالبقاء يُصبح ممكناً بفضل الرموز المشتركة بين الأفراد.

-تتطور الذات من خلال التفاعل أي العملية الاجتماعية، فالعقل والذات والمجتمع هي نتاج مترامن للعملية الاجتماعية. يُصَرِّح ميد على الطبيعة الفاعلة للسلوك البشري، مؤكداً أن الأشياء تُصبح مُحفزات عندما تكتسب معنى.

-يتطور مفهوم الذات من خلال العملية الاجتماعية نفسها؛ فهو يتجلى في النظر إلى الذات بتأمل ذاتي، من خلال تبني وجهة نظر الآخرين لإضفاء معانٍ عليها. وهكذا، تنشأ الذات من التفاعل؛ فهي نتاج اجتماعي، ويحدد ميد جزأين للذات: "الأنا"، أو المواقف المنظمة للآخرين تجاه الشخص، و"الذات"، أو ردود فعل الشخص على هذه المواقف، السلوك هو نتاج حوار داخلي تستجيب فيه "الذات" لـ"الأنا"، وهكذا دواليك.

- تمثل "الذات" العفوية والإبداع، ويرى ميد أن هذه الصفات تحدث ضمن العملية الاجتماعية. ويرى أن السلوك يخضع لضبط الذات، لكنه يعتبر الضبط الاجتماعي ضرورياً لضبط الذات. ويشير إلى أن الذات تتطور على مراحل بالتوازي مع كفاءة الطفل اللغوية. يفترض التطور الذاتي وجود المجتمع. لكن المجتمع يفترض وجود الذات؛ فكما يشكل المجتمع الذات، تشكل الذات (من خلال جدلية الأنا) المجتمع. يخضع المجتمع لإعادة تشكيل مستمرة؛ إنه بناء مستمر. وكما يشكل المجتمع الذات، يجب أن تكون الذات قيد البناء المستمر؛ النظام الشخصي والتغير الشخصي هما جانبان من العملية الاجتماعية الأوسع أيضاً.

-يُعد تأثير بلومر كبيراً على التفاعلية الرمزية البنيوية، إذ تُشكّل كتاباته نموذجاً سلبياً فيما يتعلق بالتطلع إلى إطار تفاعلي رمزي يسمح بالالتزام بقواعد العلم، دون التخلي عن جوهر الموقف الذي طرحه ميد.

- يُعرّف بلومر التفاعلية الرمزية من خلال مقارنتها بعلم الاجتماع التقليدي، تُقرّ التفاعلية الرمزية بحقيقة ثابتة مفادها أن البشر كائنات مُعرّفة ومُفسّرة، تمتلك ذواتاً تُشكّل من خلالها أفعالاً للتعامل مع عوالمها. بينما يرى علم الاجتماع التقليدي أن السلوك الاجتماعي ناتج عن القيم والمعايير والتوقعات ومتطلبات الأدوار، وما إلى ذلك، وهي ممارسة لا تتفق مع هذه الحقائق الثابتة.

ثانياً: مراجعة نقدية للنظرية التفاعلية الرمزية

- تؤكد المجموعة الأولى من الانتقادات أن التفاعلية الرمزية التقليدية لا توفر مفاهيم واضحة ودقيقة ضرورية لتطوير نظرية تخضع لاختبار تجريبي صارم، فإذا لم تكن المفاهيم واضحة أو دقيقة، فلا يمكن استخدامها في بحث دقيق.

- يُجسد مفهومان أساسيان في التفاعلية - الذات والموقف - هذه الانتقادات. فيما يتعلق بالموقف، لطالما اشتكى علماء الاجتماع من عدم وجود فهم مُرضٍ مُرجعيته، يجادل الباحثون بأنه لم يُعرّف بدقة كافية ليُصبح أداة وصفية أو تحليلية مفيدة .

-فيما يتعلق بمفهوم الذات، فبينما يُعدّ تعريف الذات بأنها ما هو موضوع لذاته، أي من خلال الاستجابات الانعكاسية للأفراد تجاه أنفسهم كموضوعات، يراه البعض تعريفاً مُثيراً؛ يفتقر إلى الدقة اللازمة للنظرية واختبارها، مما يجعل الذات مفهومًا لا حدود له تقريبًا.

-تتجاوز الانتقادات التي تزعم عدم كفاية التفاعلية الرمزية التقليدية علمياً هذه المسائل المنهجية الضيقة نسبياً لتشمل قضايا معرفية أوسع، وترى هذه الانتقادات أن الصورة المتطرفة للعملية التي يتبناها الإطار التفاعلي الرمزي، والتي تفترض أن الحياة الاجتماعية قيد البناء المستمر من خلال عمليات التفسير التي يقوم بها الفاعلون، وأن التفسيرات نفسها تُعاد صياغتها باستمرار في سياق النشاط المحدد.

-يرى نقاد التفاعلية الرمزية التقليدية أن أحد المبادئ المنهجية الكامنة وراء إنكار إمكانية وجود العلم هو اشتراط أن تستند تفسيرات السلوك الإنساني إلى وجهات نظر الفاعلين المشاركين في التفاعل المدروس.

- كما وُجّهت تهمة التحيز الأيديولوجي إلى التفاعل الرمزي التقليدي نتيجةً لتركيزه على التواصل وتطوير المعاني المشتركة، وعلى التعاون كوسيلة ضرورية للبقاء التطوري، حيث يُزعم أن هذا التركيز يؤدي إلى إهمال حقيقة الصراع ووظائفه في الحياة الاجتماعية، ومن المفترض أن يُسهم في هذا الإهمال رأي ميد بأن العمليات التطورية تُفضي في نهاية المطاف إلى ظهور عالم من الخطاب مترامن مع الإنسانية.

ثالثاً: تقييم الانتقادات:

-قد لا تكون بعض الانتقادات التي تمت مراجعتها قابلة للتطبيق بالقدر الذي يعتقدُه النقاد، على سبيل المثال، فإن انتقاد مفاهيم التفاعلية الرمزية التقليدية باعتبارها غامضة وغير دقيقة له وجهة عامة، ومع ذلك، فإن ادعاء بعض النقاد بأن هذا الإطار يتعارض مع هدف صياغة تفسيرات نظرية عامة للحياة الاجتماعية واختبارها باستخدام أي منهج متاح في العلوم الاجتماعية، بينما يرى بلومر أن النظرية السوسولوجية العامة والتنبؤ لا معنى لها، لأن المفاهيم الموجودة مسبقاً لا يمكنها أن تتطابق مع التفسيرات الناشئة للفاعلين الذين يبنون خطوط تفاعلهم الاجتماعي.

- البحث الذي يبدأ بنظرية مسبقة تتوقع النتائج السلوكية من خلال فرضيات مستنتجة من هذه النظرية هو بحثٌ عبثي، فالأساليب التي لا تفحص التفسيرات بشكل مباشر في طور ظهورها، تفتقر إلى الصلاحية والقدرة على توليد بيانات ذات مغزى.

- إن الأفكار الأساسية لإطار التفاعل الرمزي لا تؤدي بالضرورة إلى الاستنتاجات الميتا-نظرية والمنهجية التي يتوصل إليها، فتفسيرات الفاعلين، التي من الواضح أهميتها لمسار ومضمون التفاعل، ليست مطلقة. فالمعاني التي يمكن للفاعلين استحضارها في تحديد المواقف، وتلك التي يُرجح أن يستحضروها من بين تلك الممكنة، ليست أحداثاً عشوائية. كما أن هناك ثباتاً بمرور الوقت لمعظم المعاني التي يُضيفها الأشخاص على الأشياء، فهذه المعاني لا تتغير بشكل كبير من لحظة إلى أخرى بطرق تستدعي تغييراً جذرياً في السلوك.

- في الواقع، لو لم يكن هناك استقرار كبير في المعاني مر السنين، لما استطاعت الحياة الاجتماعية أن تتمتع بالقدرة على التنبؤ التي تُمكن الأفراد من عيش حياتهم كما يفعلون. باختصار، إن حقيقة أن المعاني يمكن أن تتغير بشكل كبير لا تعني أنها تتغير بالفعل بشكل سريع. إذا كان هذا ادعاءً معقولاً، فإن الافتراضات النظرية التي تقدم تفسيرات للتعميمات التجريبية التي تتجاوز الظواهر الفردية ممكنة، ولا تخضع للرفض المسبق مهما كان مصيرها عند مواجهة الأدلة التجريبية.

- إن كون الحياة الاجتماعية مبنية، وأن هناك حدوداً قليلة لما يمكن بناؤه، لا يتطلب من علم الاجتماع التخلي عن التنبؤات بالسلوكيات المستقبلية، أو يُجبر علماء الاجتماع على الاعتقاد بأن التنبؤات بالسلوك الاجتماعي تفتقر إلى الصلاحية. ولا يعني قبول موقف البناء الاجتماعي أن علماء الاجتماع لا يستطيعون إدراك أن العملية الاجتماعية غالباً ما تتبلور بطريقة تسمح باستخدام مفاهيم مجردة مثل الذات والدور والبنية الاجتماعية في الحجج النظرية العامة، حيث تُعتبر تلك المفاهيم بمثابة تقييد فعلي لإمكانات الظهور في الحياة الاجتماعية، وتعمل على تحويل الإمكانية إلى احتمال.

- إن قبول عدم الحتمية في الحياة الاجتماعية لا يتطلب من علماء الاجتماع رفض السعي إلى معرفة نظرية معممة مبنية على مدى دعم الأدلة التجريبية للادعاءات التفسيرية القائمة على النظرية، ولا يتطلب رفض العلم التقليدي كنموذج لعمل علماء الاجتماع، لا حاجة إلى كون حتمي لتبرير العلم، بل يكفي وجود قدر من الانتظام في السلوك محل الاهتمام وبافتراض وجود هذا الانتظام، فإن مهمة العلم هي وصفه وتفسيره.

- إن البحث عن أنماط عامة للسلوك الاجتماعي وتفسيرات عامة للأنماط المرصودة يجب أن يتجاهل ما قد يكون خاصاً ببعض الحالات، إن السعي إلى تفسيرات تنطبق على كل سلوك اجتماعي محدد هو أمر غير

واقعي. وبعبارة أخرى، فإن جميع التعميمات التجريبية وتفسيراتها في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي هي احتمالية في جوهرها.

رابعاً: نسخة بنيوية من التفاعلية الرمزية

- إن التفاعلية الرمزية البنيوية تقوم على إعادة تركيب عناصر موجودة في التفاعلية الرمزية التقليدية، وتفادي الانتقادات التي تعرضت لها.

- ينشأ الفرد والمجتمع من خلال التفاعل، يوجد كلاهما في نظام علائقي متبادل، فإن هذه التبادلية لا تمنع الاعتراف بأن كل إنسان تاريخي يولد في سياق علاقات وتفاعلات اجتماعية منظمة قائمة بالفعل، ولا يمكنه البقاء خارج هذا السياق، وهذه العلاقات والتفاعلات بدورها متضمنة في أنظمة أكبر من العلاقات والتفاعلات، هذا الاعتراف يدعم إعطاء الأولوية لـ "المجتمع" في نقطة الانطلاق للتفاعلية الرمزية البنيوية، أي التأكيد على أنه "في البدء كان هناك مجتمع".

- تؤكد هذه المقولة، وهي رد سوسيولوجي على سؤال كيفية فهم العلاقة بين الفرد والمجتمع على النحو الأمثل، أن البحث الذي ينطلق من الفرد المعزول، ثم يسأل عن كيفية تأثر تجربة الفرد وسلوكه بالآخرين، سيؤدي إلى سوء فهم العديد من الظواهر، كما أن اعتبار المجتمع مجرد بيئة لتجربة الفرد وسلوكه سيكون قاصراً بالمثل، باختصار، تقبل هذه المقولة حجة ميد بأن أنجع طريقة لفهم العلاقة بين الفرد والمجتمع تتطلب إدراك أن المجتمع جزء لا يتجزأ من عقل الفرد وذاته.

- في المحصلة، لا وجود للفردية بمعزل عن المجتمع، ومع ذلك، لا وجود للمجتمع إلا من خلال أفعال الأفراد. فالمجتمع والفرد يشكلان بعضهما بعضاً، ومع ذلك، ولأغراض دراسة العلاقة بين المجتمع والفرد (أو الأفراد)، يُعطى المجتمع الأولوية السببية.

خامساً: أسس التفاعلية الرمزية المعاصرة

- يرى ميد أن تنظيم الذات ومحتواها يعكسان مشاركة الأفراد في المجتمع، لكن لا تعكس صورة ميد للمجتمع تعقيد المجتمع المعاصر الذي يشغل فيه الأفراد مواقع متعددة في هياكل اجتماعية متعددة. فالمجتمعات المعاصرة ليست موحدة أو متماسكة بشكل خاص؛ بل تضم مجموعات متنوعة من العلاقات والروابط الاجتماعية والشبكات والمؤسسات والطبقات، بعضها معزول وبعضها الآخر مترابط، وبعضها متداخل وبعضها الآخر غير متداخل، وبعضها متضارب وبعضها الآخر غير متضارب. وتتأثر تجربة الأفراد

بشكل كبير بالعلاقات والروابط والشبكات والمؤسسات والطبقات التي ينضمون إليها أو يغادرونها، وبكيفية ترابط هذه الهياكل.

-وبالتالي، من المرجح أن تجمع البنى الاجتماعية أفرادًا مُعينين فقط للتفاعل حول مواضيع مُحددة باستخدام موارد عملية ورمزية مُحددة؛ أو من المرجح أن تُبقي أفرادًا مُعينين خارج تفاعلات مُعينة. إن من يتفاعل معه الأفراد ومن لا يتفاعلون معه أمر بالغ الأهمية لفرصهم الحياتية بشكل عام، ولأنواع المواقف التي تتاح لهم فرص الدخول فيها؛ وللموارد، الرمزية وغيرها، المُتاحة لهم لتحديد المواقف التي يدخلونها؛ ولأنواع الذات التي يُمكنهم تطويرها والتي من المُحتمل أن يُطوروها؛ وهكذا. مرة أخرى، التجربة الإنسانية مُنظمة اجتماعيًا؛ ومن هم وماذا يُمكن للأفراد فعله، وإن لم يكن مُحددًا، إلا أنه يعكس هذه الحقيقة.

- الحياة الاجتماعية مُشكَّلة، لا تُحدّد أشكال الحياة الاجتماعية ومضامينها بطبيعتها، بل هي نتاج أنشطة جماعية للأفراد أثناء سعيهم لإيجاد حلول لمشاكل حياتهم. والقول بأن الأشكال والمضامين الاجتماعية مُشكَّلة يعني أنها نتاج العمل والتفاعل الانساني، وأن إعادة بنائها، بل وتغييرها جذريًا، أمر ممكن.

- البشر فاعلون، قدّم علماء الاجتماع أحيانًا رؤيةً للأفراد كآلات اجتماعية، مجرد متفاعلين، لكن الفكر التفاعلي الرمزي يقول عكس ذلك، مؤكدًا أن العقل والذات، والقدرات الرمزية والانعكاسية للبشر، تسمح للفاعلين بصياغة الأفعال، وتوقع نتائجها، والاختيار من بين مسارات عمل بديلة.

- يُعدّ كلٌّ من الذاتي والرمزي عنصرين أساسيين في الحياة الاجتماعية، وبالتأكيد على أهمية تعريفات الأفراد وتفسيراتهم للسلوك.

- يُمثّل مفهوم الذات وسيطا في العلاقة بين المجتمع والسلوك الاجتماعي، وبين السلوك الاجتماعي والمجتمع. يعكس تعريف الأفراد لأنفسهم استجابة المشاركين في التفاعلات والعلاقات الاجتماعية الجارية.

- ثمة قيود وحرية في الحياة الشخصية والاجتماعية. فالأفراد مقيدون في هويتهم، وما يمكن أن يصبحوا عليه، وما يفعلونه نتيجةً لانتمائهم إلى المجتمع. ومع ذلك، يتمتعون ببعض حرية التصرف. ومن نواحٍ عديدة، تكمن أهمّ وأبرز الأسئلة في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي في هذه المفارقة الظاهرية.

- يُسهّل مفهوم الدور صياغة أفكار التفاعل الرمزي ونظرية الأدوار. والمرجع الأساسي لهذا المفهوم هو التوقعات التي تؤثر على الأفراد في تفاعلهم مع الآخرين. ويستخدم التفاعليون الرمزيون (الذين لا يستخدمون بالضرورة لغة الأدوار) هذه التوقعات كحجر أساس للبناء "نزولًا" إلى الفرد الاجتماعي في سعيهم وراء اهتمامهم بالقضايا المتعلقة بالتنظيم الشخصي والتفكك، وعمليات التنشئة الاجتماعية والتفاعل

نفسها. ويستخدم منظرو الأدوار هذه التوقعات للبناء "صعودًا" إلى وحدات اجتماعية أكبر وأكثر تعقيدًا في سعيهم وراء اهتمامهم بقضايا التنظيم الاجتماعي والتغيير، وأداء الجماعات والوحدات الأكبر للتنظيم الاجتماعي.

ثامنًا: التفاعلية الرمزية المعاصر

يتبنى الإطار التفاعلي الرمزي البنيوي رؤيةً، تتفق مع تصورات علم الاجتماع المعاصر، للمجتمع باعتباره فسيفساءً معقدةً ومتميزةً ولكنها منظمة من التفاعلات والعلاقات الدائمة نسبيًا، والمتأصلة في مجموعة من الجماعات والمنظمات والمجتمعات والمؤسسات، يعيش الأفراد ويتصرفون في شبكات صغيرة من العلاقات الاجتماعية، ويفعلون ذلك إلى حد كبير من خلال الأدوار التي تدعم مشاركتهم في هذه الشبكات.

نظرية الهوية الاجتماعية

يُزعم هنا أن التفاعلية الرمزية البنيوية مصدرٌ خصبٌ لنظريات السلوك الاجتماعي المهمة لعلم الاجتماع. ويتجه التركيز الآن إلى الأعمال التي تطورت من إطار التفاعلية الرمزية والتي يُمكن وصفها وتقييمها على أنها نظرية. وعلى وجه الخصوص، تم اختيار تفسير لسلوك اختيار الأدوار يُسمى "نظرية الهوية" والأفكار ذات الصلة لسببٍ واضح: فقد كانت هذه الأفكار محور اهتمام تسعى نظرية الهوية إلى تفسير سبب اختيار سلوك معين مرتبط بالأدوار دون غيره، حيثما كان ذلك ممكنًا.

وهي نظرية بسيطة ولكنها مفيدة، قابلة للتطبيق على نوع معين من السلوك الاجتماعي، وتدرس مجموعة صغيرة من المتغيرات التي تمثل جزءًا من تراث ميد، مع بعض التعديلات، لمعرفة مدى قدرتها على تفسير السلوك محل الاهتمام. تستمد هذه النظرية من التفاعلية الرمزية البنيوية.

تستند نظرية الهوية إلى تحسينات على التفاعلية الرمزية التقليدية وتحديدات لتلك الصيغة. وهي تتبنى رؤية للمجتمع تتسق مع صور علم الاجتماع المعاصر التي تتضمنها التفاعلية الرمزية البنيوية.

-تركز نظرية الهوية على سلوك اختيار الأدوار باعتباره جديرًا بالاهتمام النفسي والاجتماعي. فهو محوري للعديد من الأسئلة المهمة والمثيرة للاهتمام حول الحياة الاجتماعية. لماذا يكرس المرء وقته وجهده في مجال واحد من حياته - العمل مثلاً - على حساب علاقاته الاجتماعية الأخرى - الأسرة مثلاً؟ ما الذي يدعم التغيير الجذري في المسارات المهنية أو في نمط الحياة بشكل عام؟ لماذا ينخرط بعض أعضاء حركة اجتماعية في

أنشطة خطيرة لمصلحة الحركة بينما يتمتع آخرون عن ذلك؟ ما هي عواقب اختيار الأدوار على التفاعل المستمر والعلاقات الاجتماعية؟

-على الرغم من أن العلاقة ليست حتمية - فالقيود الاجتماعية على الاختيار تُعدّ عوامل مُحدّدة - فإنّ الصيغة التفاعلية ونظرية الهوية تُشيران إلى أن اختيار الدور هو نتاج الذات. ومع ذلك، فإنّ الذات تتطلب أيضاً تحديداً. فإذا كان المجتمع موجوداً في البداية، فلا بدّ أن تعكس الذات المجتمع؛ وإذا كانت الذوات المعاصرة تعكس المجتمع المعاصر، فإنّ صورة الذات تتبلور لتعكس تعقيدات المجتمع المعاصر. ترى هذه الرؤية الذات على أنّها شديدة التمايز ولكنها مُنظمة، وتتكوّن من أجزاء متعددة تعكس البنى المتعددة من مختلف الأنواع الموجودة داخل المجتمع، فضلاً عن الطرق المتعددة التي ترتبط بها هذه البنى ببعضها البعض: متداخلة، معزولة، تعاونية، متضاربة. تقبل النظرية فكرة جيمس (1890)

-بأنّ للأفراد عدداً من الذوات يُساوي عدد مجموعات الأفراد الذين يتفاعلون معهم، وباستخدام مصطلح "الهوية" للإشارة إلى كل مجموعة بناءً على الذات، تؤكد أنّ للأفراد عدداً من الهويات يُساوي عدد مجموعات العلاقات الاجتماعية المتميزة التي يشغلون فيها موقعاً ويؤدون دوراً. وبما أنّ الأدوار هي توقعات مُرتبطة بالمواقع في شبكات العلاقات، فإنّ الهويات هي توقعات أدوار مُستبطنة. تُؤكد هذه النظرية، التي تعكس أهمية التسلسل الهرمي كمبدأ تنظيمي في المجتمع، على أن الهويات تُنظم وفقاً لتسلسل هرمي للأهمية. تُفهم الهويات على أنّها مخططات معرفية .

أي معلومات ومعاني مُخزنة داخلياً؛ وبصفتها مخططات، فهي تُشكل أسساً معرفية لتحديد المواقف، وتؤدي إلى حساسية أكبر للإشارات السلوكية الخارجية والداخلية التي تتوافق بطريقة ما مع المخطط. وبصفتها مخططات معرفية، فإنّها تنتقل عبر المواقف التي يجد فيها الأفراد أنفسهم، تُعرّف أهمية الهوية بأنّها احتمال استحضارها في المواقف المختلفة (أو، على سبيل المثال، بأنّها الاحتمال التفاضلي بين الأفراد لاستحضار هوية معينة في موقف مُحدد). تفترض نظرية الهوية أنه كلما زادت أهمية هوية ما بالنسبة للهويات الأخرى في الذات، زاد احتمال اتخاذ خيارات سلوكية تتوافق مع التوقعات المرتبطة بتلك الهوية.

-تطلب بناء نظرية الهوية أيضاً تحديد المصطلح الثالث في معادلة ميد - المجتمع - ويتحقق هذا التحديد من خلال مفهوم "الالتزام". وكما ذُكر سابقاً، يعيش الأفراد ويتصرفون ضمن شبكات صغيرة ومتخصصة نسبياً من العلاقات الاجتماعية.. تفترض النظرية أن بروز الهوية يعكس الالتزام بالدور والعلاقات التي تتطلب تلك

الهوية. إن تحديد نظرية الهوية لمعادلة ميد التي تم التوصل إليها بهذه الخطوة هو: الالتزام يُشكّل الهوية، وبرزت الهوية يُشكّل سلوك اختيار الدور.

-توحيدًا لتركيزات نظريتي الهوية الخاصتين بهما، إذ يركز الأول على الطرق التي ترتبط بها البنى الاجتماعية بالهويات ويركز الثاني على العمليات الداخلية للتحقق الذاتي، مما يُبشر بفهم أكثر شمولًا للعلاقة التبادلية بين الذات والمجتمع. ثانيًا، يُبرهن هذا البحث على قدرة نظرية الهوية على دعم منهج منهجي (بدلاً من منهج عشوائي) في البحث في قضايا الهوية.

-عدم إمكانية ممارسة الاختيار، يُلبي هذا الشرط. ولكن لا يمكن للأفراد الاختيار إلا من بين الخيارات المتاحة. وبهذا التصور، يمكن قياس الحرية بنطاق البدائل الواقعية المتاحة للفاعلين؛ والتقييد بالقيود المفروضة على هذا النطاق. ويسمح هذا التصور بطرح السؤال التالي: ما الذي يُوسع أو يُقلص بدائل العمل المتاحة للفاعلين؟ لننظر في ما يُوسع البدائل. لكي توجد البدائل ويكون لها احتمال معقول للتنفيذ، يجب أن تكون حاضرة رمزياً في الفكر: لا يمكننا اختيار ما يمكننا أو لا نتصور القيام به.

ولكي تكون البدائل قابلة للتطبيق، يجب أن ترتبط بالذات؛ فمن غير المرجح أن نختار ما يمكننا أو لا نتصور أننا نستطيع أو لا نتصور أننا نستطيع أو نرغب في القيام به. ولكي تكون البدائل محتملة، يجب أن ترتبط بهويات بارزة.

-سبق أن ذكر أن مفارقة الحرية والتقييد تطرح تساؤلات اجتماعية نفسية هامة ومثيرة للاهتمام. ويمكن لنظرية الهوية الموسعة أن تتناول هذه التساؤلات شريطة تعريف الحرية والتقييد تعريفاً يسمح بالملاحظة المباشرة أو غير المباشرة.

-تُبَيّن قصة تطور نظرية الهوية ما هو مطلوب للانتقال من مستوى الإطار إلى مستوى النظرية المُستمدة من إطار. وبذلك، تُشير إلى التحدي الذي يواجه علماء الاجتماع الذين يعتقدون أن الأفكار المُستعرضة في هذا الفصل جديدة بدراساتهم الجادة، وأن هذه الدراسة الجادة يجب أن تتضمن ترجمة الأفكار إلى نظرية قابلة للاختبار لمواجهة الأدلة التجريبية. تُعد نظرية الهوية في حد ذاتها نظرية صغيرة قابلة للتطبيق على قضية اجتماعية نفسية محدودة وإن كانت مهمة؛ ويتطلب توسيع نطاقها التفسيري توسيع نطاق مفاهيمها. ومع ذلك، فإن إمكاناتها واسعة، كما يتضح من المحاولة النظرية للتعامل مع قضية الحرية والقيود الواسعة في الحياة الاجتماعية. الإطار هو أداة استدلالية، والأدوات الاستدلالية تتغير بتغير أسئلة الأشخاص الذين يستخدمونها. إن كون البشر يعيشون في عالم اجتماعي تاريخي يضمن طرح أسئلة جديدة، وإعادة صياغة

المفاهيم الحالية للإطار، وإدخال مفاهيم جديدة. كُتِبَ هذا الفصل انطلاقًا من الاعتقاد بأن التقاليد السوسيولوجية للتفاعلية الرمزية تُوفِّر أساسًا قويًا ودائمًا لمزيد من التطوير.

محاضرة رقم 2: رواد نظرية التفاعلية الرمزية المعاصرة

تمهيد

أولاً: أرلي راسل هوتشيلد: Arlie Russel Hochschild

ثانياً: هوارد بيكر Howard Becker

تمهيد:

ساهم مجموعة من الباحثين في تطوير النظرية التفاعلية الرمزية المعاصرة، نكتفي في هذه المحاضرة
ماسهمة ارلي راسل هوتشيلد وهوار بيكر، كمايلي:

أولاً: أرلي راسل هوتشيلد: Arlie Russel Hochschild

أرلي هوتشيلد أستاذة فخريّة في علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا، بيركلي، حيث حصلت على درجتي
الماجستير والدكتوراه، وقضت مسيرتها المهنية بأكملها (باستثناء منصبها الأول كأستاذة مساعدة في جامعة
كاليفورنيا، سانتا كروز، من عام 1969 إلى 1971)، لم يُنهِها التقاعد عن مواصلة نشاطها، فهي لا تزال تُجري
أبحاثاً ميدانية وتُنشر أعمالها.

فقد نشرت عشرة كتب، من بينها: "القلب المُدار: تسليع المشاعر الإنسانية (1983)؛ الوردية الثانية: الأسر
العاملة والثورة المنزلية (1989)؛ "ضيق الوقت: عندما يصبح العمل منزلاً ويصبح المنزل عملاً" (1997)؛
"تسليع الحياة: ملاحظات من المنزل والعمل" (2003)؛ "الذات المُستعان بها: الحياة في زمن السوق" (2012)؛
و"غرباء في وطنهم: الغضب والحداد في اليمين الأمريكي" (2016).

الإشكالية الرئيسية التي اشتغلت علمها تتمثل في إدارة عواطفنا واستخدامها في حياتنا الشخصية والمهنية،
وحتى في المجال السياسي. وتعتبر من أنصار العمل الميداني دون اغفال للجانب النظري، ومن أهم المفاهيم
التي طورتها، والتي تُعدّ أساسية في التعامل مع العواطف، العمل العاطفي وقواعد الشعور.

- عاني علم النفس الاجتماعي من فرضية ضمنية، ترى أن المشاعر عفوية وغير متحكم فيها، ولا تخضع
للقواعد الاجتماعية، كيف يمكننا دراستها سوسولوجياً؟ لكن الواقع يكشف ان هناك روابط مهمة بين
النية الاجتماعية وقواعد الشعور، وإدارة العواطف؟

- لماذا تخضع التجربة العاطفية للبالغين العاديين الى قدر من التنظيم في الحياة اليومية؟ لماذا يشعر الأفراد
بالفرح في الحفلات والحزن في الجنائزات، والسعادة في حفلات الزفاف؟ كيف يمكننا دراسة الاعتقادات
المتعلق بالعواطف؟

- لكن ما هو الشعور أو العاطفة؟ تعرف العاطفة بأنها "نتاج تفاعل بين الجسد وصورة أو فكرة أو ذكرى،
وهو تفاعل يدركه الفرد، وتستخدم مصطلحي "العاطفة" و"الشعور" بشكل مترادف، مع العلم أن مصطلح

"العاطفة" يدل على شدة لا يدل عليها مصطلح "الشعور"، يُستخدم مصطلحا "إدارة العواطف" هنا كمرادفين لمصطلحي "الجهد العاطفي" و"اللعب العميق". ماذا يحدث لهذه المشاعر؟

-منظور إدارة العواطف، يبدو أن القواعد تحكم كيفية محاولة الناس التفاعل أو عدم التفاعل عاطفيا بطريقة "مناسبة للموقف"، تشير هذه الفكرة إلى الطبيعة "الاجتماعية" العميقة لكل فرد، وإلى الجدية التي يأخذون بها فكرة أن يكونوا "لائقين"، وإلى الطريقة التي يُظهرون بها احترامهم للعناصر الرسمية للموقف من خلال عواطفهم أو بواسطتها.

- هناك منهجان محتملان للتنظيم الاجتماعي لأي تجربة عاطفية، الأول يتضمن دراسة العوامل الاجتماعية التي تحفز المشاعر الأولية (أي غير الواعية، وإن كانت واعية بحكم تعريفها) - وهي المشاعر التي نمر بها بشكل سلبي. أما الثاني فيتضمن دراسة الأفعال الثانوية التي تُؤدى ضمن التدفق المستمر وغير الواعي للتجربة العاطفية الأولية. يهتم المنهج الأول بكيفية تأثير العوامل الاجتماعية على ما يشعر به الناس، بينما يهتم الثاني بكيفية تأثيرها على ما يفكرون به وما يفعلونه حيال ما يشعرون به أو يتوقعون الشعور به (أي أفعال التقييم والإدارة).

- إذا اتخذنا من أفكار الناس وأفعالهم تجاه المشاعر موضوعًا للدراسة السوسولوجية، فإن عدة أسئلة تتبادر إلى الذهن. أولاً، ما هي افتراضاتنا الأولية حول العواطف والمواقف؟ بعبارة أخرى:

أ) كيف تستجيب العواطف عندما نحاول كبتها أو تنميتها؟ (ب) ما هي الروابط بين البنية الاجتماعية والأيدولوجيا، وقواعد التعبير عن المشاعر، وإدارة العواطف؟ (ج) وقبل كل شيء، هل توجد قواعد للتعبير عن المشاعر؟ (د) كيف يمكننا معرفتها؟ (ه) إلى أي مدى تُشكل هذه القواعد أساسًا لتفاعلاتنا الاجتماعية؟ (و) ما هي جوانب طبيعة العمل وتربية الأطفال التي قد تُفسر الطرق المختلفة التي يُدير بها البالغون من مختلف الطبقات الاجتماعية مشاعرهم؟

-للإجابة على السؤال الأول، هناك منظورين أساسيين للعواطف والمشاعر في علم النفس الاجتماعي: المنظور العضوي والمنظور التفاعلي. يختلف هذان المنظوران في افتراضاتهما حول قدرتنا على إدارة عواطفنا وأهمية القواعد في ذلك؟ من منظور عضوي، دراسة العواطف في علاقتها بالغرائز؟ وهنا تصبح العواكمل الاجتماعية لا تؤثر بشكل مباشر على العواطف والمشاعر.

- من منظور التفاعلية، تتأثر العواطف بقوة بالعوامل الاجتماعية، وذلك عند نقاط التقاء تُفترض نظريًا. وإلى حد كبير، تُؤخذ العوامل الاجتماعية والنفسية في الحسبان عند طرح تساؤلات منظري التفاعلية.

إذا كان بالإمكان إلى حد ما، إدارة المشاعر والأحاسيس والتحكم بها، فكيف لنا أن نفهم بُعدها المفاهيمي من منظور اجتماعي؟

- من منظور إدارة المشاعر والعواطف، ينصب التركيز على كيفية محاولة الأفراد التحكم في الشعور، وليس، كما هو الحال مع غوفمان، على كيفية محاولتهم إظهار مشاعرهم للآخرين. وهذا يدفعنا إلى الاهتمام بكيفية شعور الأفراد بالوعي، وليس، كما هو الحال مع فرويد، بكيفية شعورهم بلا وعي. يشير المنظور التفاعلي للمشاعر إلى نقاط التقاء نظرية بديلة - بين الوعي بالمشاعر والوعي بقواعد الشعور، وبين قواعد الشعور والجهد العاطفي، وبين قواعد الشعور والبنية الاجتماعية.

- تقصد ارلي بـ "العمل العاطفي" محاولة تغيير درجة و نوعية شعور أو عاطفة ما، يُعادل "إدارة" هذا الشعور خوض "لعبة عميقة".

- إن مجرد فكرة المحاولة كافية للدلالة على موقف فاعل تجاه المشاعر، في دراسة استكشافية للباحثة، وصف المشاركون جهدهم العاطفي باستخدام مجموعة واسعة من أفعال الحركة: "هياتُ نفسي ذهنيًا... كبتُ غضبي... حاولتُ جاهدا ألا أشعر بخيبة الأمل... أجبرتُ نفسي على الاستمتاع... حاولتُ أن أشعر بالامتنان... حطمتُ الأمل الذي كان يشتعل بداخلي". كما استُخدمت صيغة المبني للمجهول، على سبيل المثال: "استسلمتُ أخيراً للحزن".

- يختلف العمل العاطفي عن "كبت" أو "السيطرة" العاطفية، يشير المصطلحان الأخيران إلى جهد مُوجّه يهدف فقط إلى كبت أو منع شعور ما. أما "العمل العاطفي" فيشير بشكل أوسع إلى تشكيل شعور ما، أو كبت، ولا يقصد به "التلاعب" لأنه يوحي بسطحية. بالتالي، يمكننا الحديث عن فئتين رئيسيتين من الجهد العاطفي: الاستحضار، حيث يهدف الإدراك إلى استحضار شعور مرغوب فيه كان غائبا في البداية، والكبت، حيث يهدف الإدراك إلى استحضار شعور لا إرادي كان موجودًا في البداية.

- توجد تقنيات متنوعة للعمل العاطفي، إحداها معرفية: وتتضمن محاولة تغيير الصور أو الأفكار أو الخواطر لتغيير المشاعر المرتبطة بها، والثانية جسدية: وتتضمن محاولة تغيير الأعراض الجسدية أو غيرها من الأعراض الجسدية للمشاعر (على سبيل المثال، محاولة التنفس ببطء، أو محاولة عدم الارتجاج). ثالثًا، هناك العمل العاطفي التعبيري، والذي يتضمن محاولة تغيير تعبيرات الشخص لتغيير مشاعره الداخلية (على سبيل المثال، محاولة الابتسام أو البكاء). تختلف هذه التقنية عن مجرد إظهار المشاعر في

أنها تهدف إلى التأثير على الشعور لتغييره. كما تختلف عن العمل العاطفي الجسدي في أن الفرد يحاول تعديل أو تشكيل قناة أو أكثر من قنوات التواصل التقليدية المستخدمة للتعبير عن المشاعر.

- يتغير مفهوم الحقوق والمسؤوليات المطبقة على المشاعر في موقف معين، وتُستخدم العقوبات العاطفية بشكل مختلف، كما تُقبل عقوبات مختلفة من الآخرين، إنَّ عملية جعل المشاعر والإطار متوافقين مع الموقف هي مهمة يشارك فيها الأفراد داخلياً بشكل مستمر، لكنهم يفعلون ذلك من خلال اتباع قواعد لم يقرروها بالكامل.

- النقاط البديهية حول قواعد المشاعر، ترى أري أننا في لغتنا اليومية، نتحدث عن مشاعرنا أو مشاعر الآخرين كما لو كانت الحقوق والواجبات تنطبق عليها مباشرة.

- تُحدد الحقوق والواجبات مدى ملاءمة المشاعر من حيث مدتها (إذ يُمكن للمرء أن يشعر بغضب "مفرط" أو "غير كاف")، واتجاهها (إذ يُمكن للمرء أن يشعر بالحزن في حين ينبغي أن يشعر بالفرح)، ومدتها، وذلك بحسب الموقف الذي نشأت فيه. وتُعدّ هذه الحقوق والواجبات المتعلقة بالمشاعر مؤشرات على عمق الأعراف الاجتماعية، التي تمتد إلى أقصى حدود الرقابة الاجتماعية.

- ثمة فرق، نظرياً على الأقل، بين قاعدة الشعور التي تُعتبر ما يمكن توقعه في موقف معين، وقاعدة الشعور التي تُعتبر ما ينبغي الشعور به في ذلك الموقف، على سبيل المثال، يمكن للمرء أن يتوقع (معرفة لنفسه ولحفلات استقبال جيرانه) أن يشعر بالملل في حفلة رأس السنة الكبيرة، وفي الوقت نفسه يدرك أنه من الأنسب أن يشعر بالبهجة.

المشاعر والايديولوجيا:

كثيراً ما فُسِّرت الأيديولوجيا على أنها إطار معرفي بحت، دون أي تأثير على مشاعرنا، مع ذلك، واستناداً إلى دوركهايم، وجيرتز، وغوفمان، يمكننا اعتبار الأيديولوجيا إطاراً تفسيريّاً يُمكن وصفه من حيث قواعد التأطير وقواعد الشعور. أعني بـ"قواعد التأطير" القواعد التي نُحدد من خلالها تعريفات أو معاني للمواقف. على سبيل المثال، قد يُعرّف شخص ما الفصل من العمل بأنه مجرد مثال آخر، ضمن قائمة طويلة من الانتهاكات التي يرتكها الرأسماليون ضد العمال، أو كنتيجة لفشل شخصي آخر.

في كلتا الحالتين، قد يعكس الإطار قاعدة أعمّ تتعلق بتحديد المسؤولية. أما "قواعد الشعور"، فأعني بها المبادئ التوجيهية التي تُحكم تقييم ما إذا كان الشعور مناسباً أم غير مناسب في موقف ما. فعلى سبيل

المثال، وفقاً لإحدى قواعد الشعور، من المشروع الغضب من المدير أو الشركة، بينما وفقاً لقاعدة أخرى، ليس كذلك. إن قواعد التأطير والشعور مترابطة ومتكاملة.

سلعنة المشاعر:

تساءلت أربي عن اختلاف قواعد الشعور وأهميتها حسب الطبقة الاجتماعية، فأحد المقاربات الممكنة لهذا السؤال يتضمن الروابط بين التبادلات الاجتماعية و"تسليع" المشاعر، والقيمة التي تُمنح في العديد من وظائف الطبقة المتوسطة للقدرة على إدارة المعاني.

تتخذ المشاعر بعد أن أصبحت مألوفة خصائص المواد الخام، فعندما تدخل مظاهر التبادل العميقة إلى السوق وتُباع وتُشتري كجزء من العمل، تتحول المشاعر إلى سلعة. فعندما يُبدي المدير ثقته الحماسية للشركة، وعندما تُقدم مضيعة الطيران لركابها لطفها المطمئن، المُعدّ ذهنياً ولكنه يكاد يكون صادقاً، فإن ما يُباع كجزء من العمل ليس إلا تلاعباً عميقاً.

ثانياً: هوارد بيكر

لم يُدرس بتفصيل كاف حتى الآن ما إذا كان من الممكن اعتبار أعمال هوارد بيكر ضمن الإطار النظري الذي توفره نظرية التفاعل الرمزي، على الرغم من أنه قد يكون له موقفٌ خاص به. وقد ذُكر اسم بيكر ضمن "الرواد الجدد" لنظرية التفاعل الرمزي. إلا أن هذا المنظور ارتبط بمدارس وافتراضات نظرية مختلفة وقد لا يكون تفضيل بيكر لهذا المنظور السوسولوجي على الرغم من وضوحه.

في هذا السياق، فبلومر لم يكن مُعلِّماً لبيكر فحسب، بل كان له أيضاً أثرٌ دائمٌ على طريقة بيكر في تصور مهمة علم الاجتماع وأساليبه المثلى. يُشيد بيكر ببلومر، علاوةً على ذلك، لقدرة على إنتاج نظامٍ نظري استنتاجي بديهي حقا وفكرته عن المفهوم المُحَقَّر، مع ذلك، تُحدّد بعض التحفظات تقدير بيكر لبلومر. إذ يعترض بيكر على نظام بلومر المفاهيمي والنظري "المُجَرَّد للغاية"، وعلى عدم جدواه العملية للباحثين في علم الاجتماع. وإلى عدم إمكانية الدفاع عن نتائج مناهج بحث بلومر، إذا طُبقت باستمرار، وبالرغم من هذه التحفظات، يتفق بيكر مع أطروحة بلومر الأساسية القائلة بأن استخدام المعاني من قبل الفاعل يتم من خلال عملية تفسير.

- يجدر بنا تلخيص ما يميز نسخة بيكر من التفاعلية الرمزية المعاصرة، على النحو التالي:

1- رفض بيكر أي تصنيف أو تسمية لعمله، باستثناء التصنيف العام كعالم اجتماع.

2- وبناءً على ذلك، فإن التفاعلية الرمزية ليست سوى منظور اجتماعي يفضله على غيره.

3- يتبنى بيكر نسخة بلومر من التفاعلية الرمزية، وليس نسخة سترايكر، ويتفق عمومًا مع افتراضات بلومر المنهجية والمعرفية.

4- ومع ذلك، وبغض النظر عن الانتقادات الأخرى، يختلف بيكر مع بلومر في أنه يجد مفاهيمه ونظرياته مجردة للغاية.

1- التفاعلية الرمزية عند هوارد بيكر: لمحة عامة

يُعرّف بيكر التفاعلية الرمزية بأنها تقليد سوسيولوجي يقوم على دراسة "مواقف محددة من خلال الملاحظة الدقيقة"، وينبثق تعريفه من "شبكة من العلاقات" وليس من خلال "التنظير السوسيولوجي المجرد"، الذي يكتن له بيكر "شكوكًا عميقة"، وكما كتب في موضع آخر، فإن عرض الأفكار، أو القصص الحياتية، أكثر أهمية من التنظير، والتنظير، كما صرح بيكر في مقابلة، "ليس منتجًا نهائيًا أبدًا"، يركز تقليد التفاعلية الرمزية على "الفاعلين الحقيقيين في المواقف الحقيقية"، ويتمثل جوهر عمل بيكر في "التركيز على كيفية تعديل الميول الفردية، أيًا كان مصدرها، خلال التفاعل مع الآخرين".

-لا يمكن فهم المواقف إلا من خلال "وصف دقيق" لموضوع الملاحظة، بما يتماشى مع الأعراف الإثنوغرافية في العلوم الاجتماعية. يُعدّ الوصف الدقيق أداةً أساسيةً في الكشف عن "المعرفة الكامنة والبنى العلائقية" و"الانتظامات البنوية والتفاعلية" التي قد لا يدركها الفاعلون المعنيون .

- للمواقف معانٍ قد لا تكون واضحةً لجميع المشاركين، إلا أنها بديهية ومسلّم بها لدى معظم الناس، بمن فيهم علماء الاجتماع، طالما لم يمتنعوا على مسؤوليتهم الخاصة، عن "المشاركة الكاملة في المجتمع"، ويرتكز الوصف الدقيق على هذا الشرط، يُمنع علماء الاجتماع من "تفسير انتظام سلوك الأفراد" عندما يمتنعون عن المشاركة المباشرة في المواقف الاجتماعية، وبما أن "المعنى يُبنى في عملية التفاعل"، فإن توصية بيكر هي "النظر بعناية في الأنشطة الفعلية قيد الدراسة"، والاهتمام أيضًا بالظروف الطارئة؛ أي "موازنة القيود والفرص المتاحة للفاعلين"، و"طبيعة الصدفة لما حدث"، وكيف تُعرّف المواقف والأفعال والأفراد من قبل فاعلين آخرين أكثر قوة بطرق لا يمكن معرفتها مسبقًا .

-يتوافق تركيز بيكر على المواقف، وعلى تعريفها الجماعي من قبل الجماعات المؤثرة، مع التأكيد على هذه المفاهيم (بدلاً من مفهوم الذات)، بعبارة أخرى، ما يحدث في حياة الفرد لا يعتمد فقط على أفعاله وخياراته، بل أيضاً على أفعال جميع الأشخاص الآخرين الذين كان على صلة بهم، تُعدّ الملاحظة بالمشاركة

المنهجية المتوافقة مع هذه التوصية، شريطة متابعة المجموعة التي تُشكّل موضوع البحث باستمرار، ومراقبة أنشطتها اليومية بالكامل ، تستمد جميع العناصر الثقافية معناها من سياقها فقط. لذلك، لا يوجد مجال للتعميمات الكبيرة لأنها ليست مرتبطة بالسياق .

- ينطبق هذا أيضًا على المواقف التي يختبرها الأفراد من خلال التمثيلات؛ إذ يشارك مستخدموها بنشاط في عملية التمثيل بتفسيرها وإضفاء معانٍ عليها، قد لا يكون صانعو التمثيل قد قصدوها ، تتطلب المشاركة، بهذا المعنى، وجود صور ذهنية، لأن الصور الذهنية - وليست أي بنية موجودة مسبقًا - هي التي تحدد الأفكار والأسئلة والأجوبة المتعلقة بالبحث ، يستعير بيكر منهج البحث هذا من علم الإنسان، يستحق مفهوم "العالم" أو "العالم الاجتماعي" دراسة متأنية هنا لأهميته بالنسبة لبيكر، وللتفاعلية الرمزية عمومًا.

- يُعرّف بيكر "العالم" بأنه "مجموعة من الأشخاص الذين يعملون معًا" ، أو بعبارة أخرى، "تنظيم مستقر نسبيًا للنشاط الجماعي" ، مُضيفًا أن العالم يتكوّن من "أشخاص حقيقيين يسعون لإنجاز الأمور، وذلك غالبًا عن طريق حتّ الآخرين على القيام بأمور تُساعدهم في مشروعهم" ، للأفراد حرية فعل ما يُريدون، لكن أفعالهم "محدودة بما يُمكنهم إجبار الآخرين على فعله أو إقناعهم به" ، بدلاً من الانفتاح والعفوية.

- يُركز جوابه على وجود الأعراف؛ إذ تُلزم هذه الأعراف المشاركين في أي نشاط، ممن اتفقوا على المشاركة فيه، بأدائه بطريقة مُحددة دون غيرها. يُعرّف بيكر الأعراف بأنها "نوع من الفهم المشترك الذي يُقرّ به علماء الاجتماع تحت مسميات مُتعددة: ثقافة، معيار، فهم مشترك، إلخ". وهي بالغة الأهمية، لأنها تُمكن "الأعضاء المؤهلين في عالم الفن" من تحديد متى يكون العمل الفني مُماثلاً أو مُختلفاً عن غيره.

- يُضيف بيكر أن أنجع طريقة لدراسة الأعمال الفنية من منظور سوسيولوجي لا تكمن في التركيز على العمل الفني النهائي، إذ لا وجود له، كما يؤكد. بل ينبغي التركيز على العمل الفني قيد الإنجاز، والذي ينتج عن تعاون جميع الأفراد المختلفين - وليس الفنانين فقط - الذين يشاركون بأدوار متنوعة في عالم الفن، وبتناج لا يمكن التنبؤ بها مسبقًا .

- تنشئ العملية السياسية والاقتصادية الأعراف وتُفعل "القواعد التي يُعدّ انتهاكها انحرافًا"، ويُصنّف من يُعتقد أنهم انتهكوا هذه القواعد كمخالفين، ويُعاقبون وفقًا لذلك ، وتعتمد نظرية التصنيف عند بيكر بشكل كبير على التفاعل الرمزي، بغض النظر عما إذا كان تركيزها على الانحراف أو على أنشطة أخرى، وقد بنى بيكر هذه النظرية على مفاهيم التفاعل الرمزي مثل "التعريف، والهوية، والمشاركة، والانتماءات الجماعية، والتنظيم الاجتماعي" .

2- التفاعلية الرمزية عند هوارد بيكر

يعد مفهوم البنية ذا صلة بنسخة بيكر من التفاعلية الرمزية. في هذا الصدد، يرى بيكر أن: البنية الاجتماعية هو طريقة مجازية للإشارة إلى تلك الشبكات المتكررة وأنشطتها، بعبارة أخرى، تُمثل البنى الاجتماعية بالنسبة لبيكر، أنماطاً متكررة من العمل الجماعي، وكما أكد بيكر أن أي بنية أو نظام يُمكن العثور عليه في أداء العازفين يستلزم بالضرورة توجيهاً وتنسيقاً متبادلاً بينهم. ولا يُمكن الكشف عن ذلك إلا من خلال الملاحظة الدقيقة والمطوّلة لأدائهم .

- يرفض بيكر أي مفهوم مجرد - ومفهوم البنية خير مثال على ذلك - لا يمكن ملاحظة مراجع تجريبية له في الحياة الاجتماعية، لم يكن بيكر الممثل الوحيد للتفاعلية الرمزية الذي ابتكر مفهوم البنية واستخدمه.

- يلعب مفهوم البنية الاجتماعية دوراً هاماً في عمل بلومر التأسيسي حول التفاعلية الرمزية ، وكما جادل عموماً ضد جميع التصنيفات السوسيولوجية المجردة، فإن هذا المفهوم أيضاً لا يصح عنده إلا إذا كان مستمدًا من مجموعة الأنشطة المستمرة التي تُشكل الحياة الجماعية.

3- التفاعلية الرمزية لهوارد س. بيكر: مفهوم المجتمعات التأويلية

يتفق بيكر مع بلومر في تأكيده على أن الأفعال الجماعية تتكون من العمل الجماعي أو المنسق للأفراد الساعين إلى تلبية احتياجاتهم الحياتية، بعبارة أخرى، تنتج الأفعال الجماعية في نهاية المطاف عن التفاعلات الفردية. مع ذلك، لا يركز بيكر على التفاعلات الفردية، بل على الأفعال الجماعية، التي يعتبرها، إلى جانب الأحداث المحددة التي تُنتجها، "الوحدة الأساسية للبحث الاجتماعي..، يهتم بيكر بشكل خاص بالشبكات التعاونية التي تتكون منها الأفعال الجماعية المنظمة؛ لأن هذه الشبكات تُتيح إمكانية وجود فهم مشترك.

- تُشكّل المجتمعات بوصفها مركزاً للتعاون الروتيني والعمل الجماعي والخبرات المشتركة، عالمًا ذا معنى خاصاً بها وللآخرين أيضاً، اهتم بيكر بشكل خاص بمجتمعات مُحدّدة، يُطلق عليها اسم المجتمعات التفسيرية. ويشير هذا المصطلح إلى شبكة الأشخاص الذين يُنتجون ويستخدمون شكلاً مُحدّداً من أشكال التمثيل. تُشكّل هذه الشبكة مجتمعاً تفسيرياً إذا كانت المجموعات التي تُكوّنها هذه الشبكة، وإلى الحدّ الذي تشارك فيه، " معرفة كافية... لتفسير التمثيلات التي يُنتجها ويستخدمها أعضاؤها بشكل شائع.

- ومن الإسهامات الأخرى مفهوم بيكر للعالم، فالعالم، عرّفه بأنه مجموعة من الأفراد الذين يعملون معاً، ويؤكد بيكر على وجود شبكات من الأفراد الذين ينسقون أنشطتهم بشكل مشترك وتعاوني لإنتاج عمل

معين، هذا المفهوم للعوالم الاجتماعية مشابه ولكنه ليس مطابقاً للمفهوم الذي صاغته نظرية التفاعل الرمزي. فبحسب هذه النظرية، العالم الاجتماعي (أو المجتمع) هو تفاعل الأفراد والتواصل المستمر عبر الرموز، شريطة أن تُفضي هذه التفاعلات والتواصلات الرمزية إلى "نشوء عالم منفصل"، يمكن تعريفه بأنه "كون من الاستجابة المتبادلة المنتظمة". وبالتالي لا يمكن أن تمتد حدود العالم الاجتماعي إلى ما وراء "حدود التواصل الفعال"

- يُعرّف التقليد التفاعلي الرمزي العالم الاجتماعي من منظور التفاعلات المتبادلة والتواصل الفعال، وتُعدّ شبكات المعنى وثيقة الصلة بهذا المنظور، وتُشكل شبكات بيكر مجالاً متميزاً ومتكاملاً نسبياً من العلاقات الشخصية غير الرسمية.

4- التفاعلية الرمزية لهوارد س. بيكر: مفهوم العرف الاجتماعي

- يُعد مفهوم العرف إسهاماً آخر من بيكر في منظور التفاعلية الرمزية. يشير هذا المفهوم في كتابات بيكر إلى الفهم المشترك بين أفراد عالم اجتماعي معين، وتختلف موضوعات هذا الفهم، ولكنها في جميع الأحوال تتعلق باتفاقات سابقة أصبحت "عرفاً سائداً"، وتُوفر الأساس الذي يُمكن المشاركين في عالم اجتماعي من خلاله العمل معاً بكفاءة لإنتاج أعمال مميزة.

- يربط هذا المفهوم بالعالم الاجتماعي، وبالتالي بالعمل كنتيجة للنشاط التعاوني. وتتمثل مساهمة بيكر المحددة في التفاعلية الرمزية على النحو التالي:

- تنتج شبكات الأفعال الهادفة والاعتيادية والتعاونية عملاً إذا شكلت هذه العلاقات الشخصية غير الرسمية عالماً اجتماعياً.

- يتكون هذا العالم الاجتماعي من تجارب مشتركة وأنشطة مترابطة؛

- لذلك، يمكن ملاحظته تجريبياً كواقع اجتماعي ملموس.

- هذا العالم الاجتماعي هو مجتمع إذا - و فقط إذا - كان موقعا للتعاون الروتيني والعمل الجماعي والتجارب المشتركة ذات المعنى لأولئك الذين يشاركون فيها، وللآخرين أيضاً.

محاضرة رقم 03: علم الاجتماع العلوم عند روبرت ميرتون

تمهيد

أولاً: علم الاجتماع العلوم عند روبرت ميرتون: السياق التاريخي لنشأته

ثانياً: الاخلاق العلمية عند روبرت ميرتون

ثالثاً: نقد علم الاجتماع العلوم عند روبرت ميرتون

تمهيد:

إن علم اجتماع العلوم أو علم اجتماع العلماء، قد نُظِر إليه في البداية على أنه علم اجتماع المهن، وترسخ سابقا أيضا كعلم اجتماع المعرفة، وحاول طرح تساؤلات حول طبيعة العلاقة بين المعرفة والبنى الاجتماعية، هل تخضع الحياة العقلية للتفسير الاجتماعي؟ وهل ينطبق الشيء نفسه عن المعرفة التي تُشكلها العلوم الوضعية؟ هل ستظل المعرفة العلمية علمية عند تفسيرها اجتماعيا؟ ماذا يحدث للحدود الدائمة بين المعرفة الأكاديمية والخطاب الاجتماعي؟ وإلى أي مدى توجه الخيارات الاقتصادية و السياسية الأنشطة العلمية وإدارتها؟

أولا: علم الاجتماع العلوم عند ميرتون: السياق التاريخي لنشأته

- بدأ تأسيس علم اجتماع العلوم كبرنامج بحثي في إطار أعمال عالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون، واعتمد هذا البرنامج بشكل أساسي على توسيع التحليل البنيوي الوظيفي، وتجاوز الأطر التفسيرية الماركسية من خلال تطوير إطار نظري أكثر مرونة منفتح على نطاق أوسع من العوامل التفسيرية.

- حاول روبرت ميرتون من خلال أطروحته للدكتوراه، التي قدم فيها تفسيراً فيبرياً لظهور العلوم الحديثة في إنجلترا في القرن السابع عشر، استناداً إلى الطبقة البرجوازية والأخلاق البروتستانتية، ولا سيما في نسختها البيوريتانية (مذهب بورتستانتي مسيحي)، وجادل بأن النشاط العلمي ازدهر في إنجلترا لأن القيم المرتبطة به كالتجريبية، والبحث الحر، ومناهضة التقاليد، وأخلاقيات العمل المرتبطة بالتجريب، إلخ، كانت متوافقة مع تلك التي روجت لها الأخلاق البيوريتانية.

- يؤكد ميرتون أن العلم في مراحل الأولى كان قائماً على معتقدات دينية، مثل فكرة "النظام الطبيعي"، وبالمحصلة حاول ميرتون أن يثبت الفرضية الذاهبة إلى وجود تبعية متبادلة بين النظام الاجتماعي ككل والنظام الفرعي الناشئ للعلم، برر العلماء في البداية نشاطهم بالرجوع إلى الميتافيزيقا الدينية والاعتراف البيوريتاني، والاحتياجات التقنية في ذلك الوقت، ولكن تم التعامل معه لاحقاً بطريقة أكثر حيادية وربطه بالمعايير والقيم العلمانية، وقد سمح هذا الانفصال أيضاً للعلم بأن يصبح قيمة مهيمنة في المجتمعات الحديثة.

- سعى ميرتون أيضاً إلى تحديد السياقات الاجتماعية والسياسية المواتية لتطور العلم، في سياق ما بين الحربين العالميتين حيث طُرحت مسألة شرعية استقلاليته، وانطلاقاً من حجج فيبر المتعلقة بأسس الإيمان بقيمة العلم، يرى ميرتون أن تطوره يرتكز على ظروف ثقافية ومؤسسية محددة، بما في ذلك، توافق

الأهداف والقيم العلمية مع تلك الخاصة بالمؤسسات المهيمنة. ووفقاً له، ثمة تقارب تلقائي بين العلم والديمقراطية الليبرالية، حيث تُعزز الأخيرة قيم العالمية والعقلانية والحرية التي تُعتبر عزيزة على العلم، وتمنح المؤسسات العلمية استقلالية نسبية.

- يتعزز هذا التقارب من خلال مقارنة ميرتون مع نظام هتلر، حيث وجد فيه مثلاً واضحاً لمصادر العداء تجاه العلم التي من المرجح أن تعيق تطوره، وفي مقدمتها المذاهب العنصرية والأيدولوجية، والمناخ المعادي للفكر والنفعية، ويرى ميرتون أن أوجه التقارب بين العلم وبعض الأنظمة المعيارية والمؤسسية تنبع من علاقات وظيفية تعزز من خلالها هذه الأنظمة الأداء المستقل للعلم وإعادة إنتاجه، مما يضمن بدوره وظيفته إنتاج معرفة موثقة، قابلة للاستخدام العملي، ولكنها تخضع للرقابة الداخلية.

ثانياً: الأخلاق العلمية عند روبرت ميرتون The Ethos of Science

- يُفهم العلم كنشاط اجتماعي مستقل، وهو منظم حول مجموعة من المعايير الداخلية الخاصة به، هذا ما يُعرف بأخلاقيات العلم، والتي تشير من منظور ميرتون إلى مجموعة القيم والمعايير، والتي يُفترض أن يلتزم بها العالم، وهي تتضمن نوعين من المعايير: من جهة، المعايير "التقنية" و "المعرفية"، والتي تتعلق بالأساليب والقواعد "المنطقية" (الداخلية) التي تُوجه عمليات تطوير المعرفة العلمية وتوثيقها، ومن جهة أخرى، المعايير "الأخلاقية" للمهنة العلمية، والتي يصفها ميرتون بأنها ضرورات مؤسسية نابعة من النوع الأول.

إن أخلاقيات العلم هي تلك المجموعة المعقدة من القيم والمعايير المؤثرة التي تُعتبر ملزمة للعلماء، وتُعبّر هذه المعايير في صورة توجهات ومحظورات وتفضيلات، وتصاريح. وتُضفي عليها الشرعية من خلال القيم المؤسسية. هذه الضرورات، التي تُنقل بالقول والفعل وتُعزز بالعقوبات، يستوعبها العالم بدرجات متفاوتة، مُشكِّلةً بذلك ضميره العلمي.

إنّ دراسة أخلاقيات العلم الحديث ليست سوى مقدمة محدودة لمشكلة أوسع نطاقاً، وهي الدراسة المقارنة للبنية المؤسسية للعلم، ورغم ندرة الدراسات إلا أنها توفر أساساً للافتراض المبدئي بأن "العلم يُمنح فرصة للتطور في نظام ديمقراطي متكامل مع أخلاقيات العلم". وهذا لا يعني أن السعي وراء العلم يقتصر على الأنظمة الديمقراطية. فقد قدمت أكثر البنى الاجتماعية تنوعاً قدراً من الدعم للعلم، لذلك يتطور العلم في سياقات اجتماعية متنوعة.

يتمثل الهدف المؤسسي للعلم في توسيع نطاق المعرفة الموثقة، وتوفير الأساليب التقنية المستخدمة لتحقيق هذا الهدف، التعريف المناسب للمعرفة: بيانات منتظمة مؤكدة تجريبياً ومتسقة منطقياً (وهي في الواقع

تنبؤات). وتنبثق القواعد المؤسسية (الأعراف) من هذا الهدف والأساليب، ويُجسد الهيكل الكامل للمعايير التقنية والأخلاقية الهدف النهائي، ويُعد المعيار التقني للأدلة التجريبية، الكافية والموثوقة، شرطاً أساسياً للتنبؤ الصحيح المستدام؛ كما يُعد المعيار التقني للاتساق المنطقي شرطاً أساسياً للتنبؤ المنهجي والصحي. وتمتلك أعراف العلم أساساً منهجياً، لكنها ملزمة، ليس فقط لكفاءتها الإجرائية، بل أيضاً لاعتقاد الناس بصحتها وصلاحها. فهي بمثابة صفات أخلاقية وتقنية في آن واحد.

نشر ميرتون مقالا بعنوان "البنية المعيارية للعلم"، حيث اعتب العلم كنشاط اجتماعي يُنظم بواسطة "أخلاقيات"، أسست مقالته برنامجاً بحثياً حقيقياً، تتألف مجموعة القيم والمعايير العلمية الأساسية التي قدمها ميرتون من أربعة مبادئ أساسية: العالمية، والشيوعية (الأكاديمية)، والحياد، والشك المنظم.

يشير مصطلح "الشمولية أو العالمية" إلى الهدف العام للممارسة العلمية، ألا وهو السعي وراء الحقيقة، وفكرة أن الخصائص الشخصية للعلماء لا تؤثر على صحة حججهم ولا على وصولهم إلى مناصب في العلم، وتخضع ادعاءات الحقيقة "لمعايير موضوعية محددة مسبقاً: تتوافق مع الملاحظة والمعرفة المؤكدة سابقاً، وتعني "الشيوعية" في هذا السياق أن المعرفة العلمية منفعة عامة يجب مشاركتها، إن النتائج الجوهرية للعلم هي نتاج تعاون اجتماعي، وهي ملك للمجتمع، لا يُنظر إلى هذا النوع من الشيوعية الأكاديمية على أنه يتعارض مع التقدير الشخصي للعلماء الأفراد ومساهماتهم.

- يُفهم مبدأ الحياد بشكل قاطع على أنه سمة مؤسسية وليس سمة فردية للعلماء. ووفقاً لميرتون يتسم سلوك العلماء ب نمط مميز من السيطرة المؤسسية على نطاق واسع من الدوافع، ويعني مبدأ الحياد أن العلماء، في سعيهم وراء الحقيقة، لا يحصلون على أي منفعة شخصية باستثناء المكاسب في سمعتهم، إن منح العلماء الآخرين التقدير الكافي لعملهم يُعد ممارسة جيدة، ويستبعد هذا المبدأ استخدام وسائل غير عادلة (بما في ذلك الاحتيال) من قبل الأفراد؛ في الواقع، يتحدث ميرتون، عن "الغياب شبه التام للاحتيال في سجلات العلم".

أخيراً، يشير مبدأ الشك المنظم إلى ضرورة إخضاع كل بيان علمي، من حيث المبدأ، للفحص النقدي، ولا سيما في شكل منافسة علمية. ويجب اعتبار المصالح المتعارضة وخاصة مصالح سلطات الدولة أو الجماعات الدينية، غير ذات صلة، ومرة أخرى، تُعرّف مهمة العلم بأنها طرح أسئلة واقعية، بما في ذلك الاحتمالات، المتعلقة بكل جانب من جوانب الطبيعة والمجتمع.

-لا يكتسب العلماء هذه المعايير من خلال التنشئة الاجتماعية فحسب، بل يتم فرضها أيضا من خلال الرقابة الاجتماعية المؤسسية داخل مجتمع العلماء،

تتمثل السمة الأولى الضمنية، ولكنها جوهرية، في التركيز على البحث والابتكار، وهذا يعني أن العلم (الحديث) يُنظر إليه في المقام الأول على أنه معني بالاكشاف والتقدم، فهو أقل اهتماما بتنظيم المعرفة التقليدية. وبما أن التركيز ينصب على شريحة معينة مقارنةً بالحياة الأكاديمية العملية، فإن المعايير المحددة تؤدي دورًا عمليًا: "الهدف المؤسسي للعلم هو توسيع نطاق المعرفة المعتمدة. [...] وتستمد الضرورات المؤسسية (الأعراف) من الهدف والأساليب".

ثانياً، أن العالمية ليست في المقام الأول مسألة عدالة، بل يُنظر إلى انتهاك مبادئ العالمية على أنه مشكلة، لأن التطور الناجح للمعرفة قد يتعرض للخطر عندما يعجز نظام العلم عموماً عن الاستفادة من أفضل الموارد البشرية المتاحة، لن تنطبق العواقب السلبية في كل حالة فردية، ولكن من حيث المبدأ، حتى الانتهاكات الطفيفة لهذه المعايير العامة قد تُعتبر محفوفة بالمخاطر.

ثالثاً، يُنظر إلى العلم على أنه مسعى منظم اجتماعياً ينطوي على تقسيم متطور للعمل، ويُنظر إلى الطريق نحو الحقيقة على أنه مشروع تراكمي يضم العديد من المساهمين المحتملين، ومن المفترض أن الفضول الفردي والمصلحة الذاتية المشروعة والمنافسة تُحقق الصالح العام المنشود، ويركز ميرتون على القواعد الأساسية التي توجه هذه العملية الاجتماعية، يهتم نموذج ميرتون بالعلاقات بين العلماء على الرغم من أن مقالته تدور أساساً حول تنظيم عملية المعرفة العلمية، إلا أنه لا يوجد سوى القليل من الإشارات الصريحة إلى المنظمات العلمية الوسيطة.

ثالثاً: نقد علم الاجتماع العلوم عند روبرت ميرتون

-انطلاقاً من هذا الفهم للعلاقة بين الأنظمة الاجتماعية والمؤسسات، اتخذت الدراسات التي تلت بدرجات متفاوتة من النقد، العمل الرائد لميرتون اتجاهين رئيسيين. تمثل الأول في التساؤل عما إذا كان نموذج التنظيم العلمي الذي وضعه ميرتون استناداً إلى تاريخ العلوم من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر لا يزال صالحاً، لا سيما فيما يتعلق بالطريقة التي تُمنح بها الجوائز العلمية والتفاوتات الاجتماعية المستمرة داخل المجتمع العلمي، أو التوترات بين التنشئة العلمية وممارسة البحث في الشركات الاقتصادية.

أما النهج الثاني، ذو الطابع الاجتماعي التاريخي، فقد سعى إلى التعمق في نظريات ميرتون المتعلقة بتأسيس العلوم الحديثة، مع التركيز بشكل خاص على الظهور التدريجي لدور العالم منذ القرن الخامس عشر

فصاعداً في العديد من الدول الأوروبية وعلى نشأة التخصصات العلمية ، علاوة على ذلك، مكن ابتكار يوجين غارفيلد لمؤشر الاستشهاد العلمي في ستينيات القرن العشرين الباحثين الميرتونيين من توسيع نطاق تحليلهم ليشمل بنية العلم وديناميكيات إنتاج المعرفة العلمية.

تجدر الإشارة إلى أن علم الاجتماع الميرتوني، من خلال تناوله للعلوم نفسها، يُمثل تقدماً واستقلالاً لهذا المجال من الدراسة مقارنةً بعلم اجتماع المعرفة الذي كان يُعنى سابقاً بالأيدولوجيات. مع ذلك، فإن هذا المنهج في الاعتراف بتمايز مجالات النشاط في العصر الحديث، حتى ضمن النظام المؤسسي والمعرفي للتخصصات، يميل في الواقع إلى تجاهل مشكلة العلاقة بين المعرفة العامة والمعرفة الأكاديمية.

- إن هذا التركيز على الخصوصية الاجتماعية للنظام العلمي، أدى إلى نوع من التباعد عن تشاؤمه بشأن مستقبل المجتمعات شديدة العقلانية، وعن اهتمامه بالتفكير الشامل والديناميكي في العلاقات بين المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية. وفي هذا الصدد، من المهم ملاحظة أن المعايير "التقنية" للأخلاقيات العلمية، مع التسليم بأن المعايير "الأخلاقية" مستمدة منها، لم تحظَ باهتمام كبير من ميرتون وأتباعه. وهذا يؤكد فكرة أن محتوى العلم، بالنسبة لهم، ينبع في نهاية المطاف من العقل الكوني والاكتشاف التدريجي للحقيقة، وبالتالي يصعب إخضاعه للتحليل الاجتماعي.

-يعتبر روبرت ميرتون مؤسس علم اجتماع العلوم، فذلك لأنه مع ميرتون حدث التحول من علم اجتماع المعرفة إلى علم اجتماع العلوم، ونشأ تخصص جديد بموضوع دراسته ومنهجه، ثم بمجالاته (دراسات العلوم، والدراسات الاجتماعية للعلوم) ومؤتمراته ، وقد كرّس ميرتون أطروحته للدكتوراه، التي نُشرت عام 1938، لدراسة فيبرية للظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة بتطور العلوم والتكنولوجيا في إنجلترا في القرن السابع عشر.

محاضرة رقم 04: علم الاجتماع العلوم

تمهيد

أولاً: علم الاجتماع العلوم: السياقات التاريخية والمعرفية الممهدة لنشأته

ثانياً: رواد علم الاجتماع العلوم

1- ديفيد بلور والبرنامج القوي

2- هاري كولينز والبرنامج التجريبي للنسبية

3- مايكل لينش والدراسات المختبرية والاثنوميثدولوجيا

تمهيد:

عرف علم اجتماع العلوم تحولاً جذرياً في سبعينيات القرن العشرين، إذ انتقل من دراسة مؤسسات العلم وفق نموذج ميرتون إلى فحص جوهر المعرفة العلمية ذاتها، وفي هذا السياق، جادل ديفيد بلور بأن على علم الاجتماع العلوم بإمكانه تفسير المحتوى الصلب للعلم وعدم الاكتفاء بدراسة سلوك العلماء.

بينما ركز "هاري كولينز" على دراسة كيفية حسم الخلافات العلمية داخل المختبرات، مُستعرضاً مفهومه الأشهر مدارُّ المجرّب (Experimenter's Regress)، حيث يرى أنه للحصول على نتيجة صحيحة، يحتاج الباحث إلى أداة دقيقة ولكن لمعرفة ما إذا كانت الأداة دقيقة، فإنه يحتاج منها أن تعطي النتيجة "الصحيحة" أولاً! وبما أن المنطق والتجارب وحدهما لا يستطيعان كسر هذه الحلقة المفرغة، يطرح كولينز مفهوم "الإغلاق الاجتماعي"؛ جازماً بأن المفاوضات الاجتماعية وبناء التوافق هما ما يحسمان النقاش العلمي في نهاية المطاف.

في إطار الدراسات المختبرية وعلم المنهجيات الإثنوية (Ethnomethodology)، نجد إسهامات "مايكل لينش" الذي تعامل مع المختبر بوصفه مجالاً أنثروبولوجياً، وباستخدام الملاحظة المباشرة، درس لينش أسلوب تواصل العلماء وعملهم، ليخلص إلى أن العلم لا يقتصر على اتباع وصفة أو طريقة جاهزة، بل ينطوي على تعديلات وتفسيرات مستمرة لا تُدرج في الأوراق البحثية النهائية، لذا، يرى لينش أن علم الاجتماع العلوم لا ينبغي أن يسعى لاكتشاف الرواية الحقيقية، بل دراسة كيف يستخدم العلماء هذه الروايات المختلفة للحفاظ على سلطتهم المعرفية.

سنسعى في هذه المحاضرة إلى استعراض أهم إسهامات هؤلاء العلماء في حقل علم الاجتماع العلوم.

أولاً: علم الاجتماع العلوم: السياقات التاريخية والمعرفية الممهدة لنشأته

- إن النظر إلى العلم كنشاط وسلوك اجتماعي ولدت عشية ميلاد علم الاجتماع مع اميل دوكرام وواجست كونت، ثم نشأة علم الاجتماع العلوم كتخصص فرعي من علم الاجتماع مع روبرت ميرتون، وأصبحت لديه مفاهيمه ومقارباته النظرية والمنهجية.

- إذا القينا ببصرنا تاريخياً، فإننا نجد أنه قبل أن يتشكل علم الاجتماع العلوم كتخصص علمي قائمة بذاته، سبقته محاولات عرفته باسم علم الاجتماع المعرفة، حاول الباحثون

الربط بين إنتاج المعرفة والمجتمع، واعتبروا ان المعرفة بمثابة رؤية للعالم، وكذلك كشفوا عن علاقة المعرفة بالبنيات الثقافية من جهة، وعلاقتها بالايديولوجيات من جهة أخرى.

يعد روبرت ميرتون مؤسس الفعلي لعلم الاجتماع العلوم، وكما اشرفنا في المحاضرة السابقة، الى ابرز اسهام له، فهو الذي نقلنا من علم الاجتماع المعرفة الى علم الاجتماع العلوم، معنا بذلك عن ميلاد سوسيولوجيا تهتم بدراسة الإنتاج العلمي والمؤسسة العلمية كظاهرة اجتماعية.

بعدها أصبحت الدراسات تستخدم قاعدة البيانات التي وضعها E. Garfield سنة 1963م، تلك القاعدة التي تجمع عدد استشهادات المقالات العلمية، Citation Index، الهدف منها هو قياس الأثر العلمي، وتقييم الأداء العلمي للباحثين، وتطورها

-ان سوسيولوجيا العلوم كاي فرع من فروع علم الاجتماع، أعطيت له عدة تصورات بحسب الفاعلين العلميين النشطين في هذا الحقل، لخصها ميشال دوبرا في بعدين أساسيين: البعد الأول، ان سوسيولوجيا العلوم الحديثة تعود تاريخ نشأتها الى وبرت ميرتون في مقالته السابقة الذكر، والبعد الثاني، ان سوسيولوجيا العلوم عرفت صورة في السبعينات من القرن الماضي، " حين احلت محل دراسة العلم باعتباره مؤسسة، دراسة البعد المعرفي، -من حيث محتويات المعرفة- ولآثاره الاجتماعية -

يشير الباحثين في هذا التخصص الى فكرة جوهرية، وهي ان المشتغلين في هذا الفرع ينقسمون الى مجموعتين، الأولى يمثلها الباحثون في علم الاجتماع، والثانية، الباحثون خارج دائرة علم الاجتماع، ينتمون الى تخصصات وحقول معرفية أخرى.

ينقسم برنامج البحث الحالي في علم الاجتماع العلوم، بحسب بعض الخبراء إلى ثلاثة أجزاء: أولاً، المشكلات المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والمعرفي للعمل العلمي؛ ثانياً، المشكلات في علم اجتماع المعرفة العلمية؛ وثالثاً، الروابط المتبادلة بين العلم وسياقاته الاجتماعية - الآثار الاجتماعية المترتبة على العلم وتأثير المؤسسات الاجتماعية الأخرى والثقافة عليه .

هذا التصنيف لا يُشير إلا إلى نطاق وتنوع المشكلات التي يدرسها علماء اجتماع العلم فعلياً، ويمكن استخدامه أيضاً للدلالة على إمكانية عزل الأسئلة المتعلقة بتطور المعرفة العلمية عن تنظيمها الاجتماعي، وأن المجالين المعرفي والاجتماعي للعلم قابلان للفصل. هذا ليس صحيحاً، فهما مترابطان ترابطاً وثيقاً. على الرغم من أن بعض الأبحاث الحالية حول التنظيم الاجتماعي للعلم تميل إلى التقليل من شأن الجوانب المعرفية للعلم، بينما بعض الأبحاث الحالية

ان الاختلافات النظرية والمفاهيمية بين الباحثين في علم الاجتماع العلوم، تتعلق بالاختلافات حول مفهوم العلم ذاته، فهناك على الأقل ثلاثة رؤى للعلم، الأولى ترى ان العلم عبارة عن مجموعة من المعارف المؤكدة بواسطة النظريات والملاحظات والتعميمات التجريبية حول الظواهر الاجتماعية والطبيعية شرط ان تكون مقبولة من طرف العلماء في زمن ما، ثانيا، العلم عبارة عن مجموعة من الإجراءات والتقنيات التي تستخدم لاكتشاف الظواهر، والمعرفة العلمية تتطور وفق لمجموعة من القواعد بعضها قابل للتغير والبعض الاخر لا، مع شرطية ان تكون المعرفة منسقة ومنطقية، الثالثة، العلم عبارة عن مشروع اجتماعي ، ثقافة او تقليد، ومجموعة من الترتيبات لتطوير المعرفة وتوثيقها ونشرها،

اما اذا رجعنا الى عقد الخمسينات وهو عقد الانطلاقة الفعلية لعلم الاجتماع العلوم، نجد انه انقسم بدوه الى مجموعة، المجموعة الأولى وهو من تلاميذ روبرت ميرتون، والمجموعة الثانية، باحثون ينتمون الى تخصصات متعددة، في عقد السبعينات والثمانينات تشكلت مقاربات جديدة في علم الاجتماع العلوم، قادها باحثون متحمسون، حاولوا تجاوز رؤية ميرتون التي هيمنت لعقود، " برز الى سوق الأفكار جيل جديد من الباحثين، كانوا بدايو اوربيون، أساسا ثم اميركيين.

-تجسد هذا التطور المعرفي لعلم الاجتماع العلوم في شكل مؤسسي ، حيث تأسست العديد من الجمعيات المنظمات والمجلات العلمية، على سبيل المثال، تاسيس فريق البحث في علم الاجتماع العلوم ضمن الجمعية الامريكية لعلم الاجتماع سنة 1973م، الكتاب السنوي لعلم الاجتماع العلوم 1977م، الجمعية الامريكية للدراسة الاجتماعية العلوم، 1975م، والجمعية الاوربية لدراسة العلم والتكنولوجيا سنة 1981م.

علم الاجتماع العلوم طرحت من طرف الاميركيين، بينما في بريطانيا عفت باسم علم الاجتماع المعرفية العلمية دافيد بلور وهاري كولتز،

ثانيا: رواد علم الاجتماع العلوم

أولا: هاري كوليز Harry Collins

يعتبر هاري كوليزي واحد من الباحثين المرموقين في علم الاجتماع العلوم، ترك لنا عدد الالباس به من البحوث والدراسات في هذا المجال، من اعماله المنشورة، من كتبه المعروفة: " تغيير النظام: التكرار والاستقرار في الممارسة العلمية" ، " الخبراء الاصطناعيون: المعرفة الاجتماعية والالات الذكية، /" الجولم: ما يجب ان يعرفه أي واحد عن العلم "

عرف بمساهمته في علم الاجتماع المعرفة العلمية، ويرى ان علم الاجتماع عند روبرت ميرتون ومن يتنون وجهة نظره، لا يولي اهتمام سوسولوجيا بضمون الإجابات العلمية، بينما علم الاجتماع المرفة العلمية، " من ناحية أخرى، يهتم علم اجتماع المعرفة العلمية تحديداً بما يُعتبر معرفة علمية وكيفية اكتسابها لهذه الصفة. والعبارة المحورية هنا هي "يُعتبر معرفة علمية"، إذ لا يُدعى امتلاك معرفة بما هو خفي وراء النشاط العلمي البشري. يُطلق على أقوى أشكال هذا المنظور غالباً اسم "النسبية"، لأنه لا يفترض وجود نقاط ثابتة في العالم المادي، ولا مجالاً منطقيًا ثابتاً يُلزم بالاتفاق بين مراقبين أو مفكرين محايدين من ثقافات مختلفة جذريًا. لا تُعتبر الطبيعة ولا العقلانية من البديهيات العالمية للثقافة الإنسانية. يركز البحث القائم على هذا المنهج على كيفية اكتساب آراء معينة حول العالم المادي والرياضية داخل مجتمع ما، بدلاً من كيفية تنظيم المجتمع بحيث تظهر الحقيقة. غالباً ما يتحدث الكتاب في مجال النسبية عن "البناء الاجتماعي" للمعرفة العلمية."

الاختلاف بين البرامج البحث في علم الاجتماع العلوم وعلم الاجتماع المعرفة العلمية، يتمثل في طبيعة الافتراضات الأساسية، والاسئلة الموجه للمجتمع، والهداف من واره تلك الأسئلة، لذلك يعتبر علم الاجتماع المعرفة العلمية مرد فعل على برنامج البحث في علم الاجتماع العلوم، ركز بلور على اهتمام واضح بعلم اجتماع المعرفة من منظور نسبي طوال سبعينيات القرن الماضي من القرن الماضي، شهدت أوروبا سلسلة من الأبحاث التي هاجمت علم اجتماع العلوم التقليدي.

، نحو برنامج جديد: البرنامج العلمي لعلم الاجتماع العلوم

اشار كولنيز الى هنا، الى العلاقة بين علم الاجتماع العلوم وعلم الاجتماع المعرفة، وأضاف ان هناك فلسفة العلوم وتاريخ فلسفة العلوم مثل لاكتوس، وفيربانند، الذين سسدوا نقدا لاذعا للمعرفة العقلانية، ونقا لفلسفة العلوم العقلانية، ما دفع العلماء للدفاع عن علاقة العلم في مواجهة تهديد النزعة النسبية.

سيجد المشتغلون في علم الاجتماع المعرفة العلمية في تاريخ العلوم مرتكزا في بلورة أطروحاتهم او فرضياتهم، بل واعتبر جزءا من تاريخ العلوم، على هذا الأساس، امتدت النزعة النسبية للسوسولوجيا المعرفة العلمية.

الاستراتيجيات البديلة:

دراسات المجموعة الأولى:

يوجد نوعان من الدراسات التي توضح اليات انتاج المعرفة العلمية، النوع الأول يركز على الخوارزميات الرسمية للعلم، مثل آليات التحكيم السليم في التجارب العلمية، اجراؤها وتكرارها، لا تفسر هذه الاساليب بالكامل نتاج البحث العلمي، ولا تملك القدرة على تفسير الخلافات حول ما يعتبر إضافة علمية حقيقية، ولا يمكنها انهاء الجدل العلمي، اما النوع الثاني، تحليلات المنهج العلمي. ومن الدراسات التي تهدف إلى هذا النوع من التحليلات دراسي المقارنة الخاصة بالفيزياء التجريبية

في العلوم "العادية" غير المثيرة للجدل، تكون التجربة والخطأ كافية، ولكن عندما لا يكون نطاق النتائج الصحيحة للتجربة معروفًا مسبقًا - كما هو الحال في العلوم المثيرة للجدل - فلا توجد طريقة مباشرة لتحديد ما إذا كانت التجربة قد أُجريت بكفاءة "

استخدمت جميع الدراسات المعاصرة الموصوفة حتى الآن منهجية مماثلة. وهي جميعها دراساتٌ تتناول قضايا خلافية؛ إذ اشتمل العمل الميداني في المقام الأول على مقابلات معمقة مع أعضاء المجتمع العلمي، الذين غالبًا ما يكونون على خلاف، والذين قدموا إسهامات تجريبية أو نظرية هامة في النقاش المطروح. وعادةً ما تكون هذه المجموعات صغيرة - من حوالي ثلاثة أفراد فأكثر. وقد أُطلق عليها اسم "المجموعات الأساسية

الدراسات المخبرية:

لا تُركز الدراسات المخبرية على الإلمام التقني بعمل العلماء أو المشاركة فيه. الأسلوب أنثروبولوجي. يُحافظ على قرب من موقع البحث، ولكن مع قدر من "الغرابة". يُزعم أن هذه هي الطريقة الوحيدة لمراقبة العمل العلمي بشكل صحيح.

المختبر بمثابة مجموعة من "أدوات التدوين"، التي تنتج الرسوم البيانية والجدول، أو ما شابه. تتمثل مهمة العالم في تحويل مخرجات هذه الأدوات إلى وثائق أخرى، ثم إلى وثائق أخرى، وصولًا إلى الورقة العلمية.

قد يكون اختلاف التركيز بين هذه الدراسات ودراسات المجموعات الأساسية نابغًا من حقيقة أن جميع الدراسات المخبرية تقريبًا أُجريت على العلوم البيولوجية، بينما أُجريت جميع الدراسات الأخرى تقريبًا على الفيزياء. ربما تكون مختبرات الأحياء، على عكس مختبرات الفيزياء، مليئة بأدوات التدوين.

المرحلة والتخصص

تناولت العديد من الدراسات الأساسية أحياناً مثيرة للجدل علمياً - ما يمكن أن نسميه "العلوم الاستثنائية" - كموضوع لها وقد ركزت جميع الدراسات المختبرية على علم الأوبئة.

كان موضوع معظم الأعمال المبكرة يهدف الى دحض الانتقادات القائلة بأن علم اجتماع المعرفة العلمية لا يمكن تطبيقه إلا على مجالات العلوم الإنسانية، كالعلوم الهامشية أو المواضيع السياسية الواضحة. وقد جادل البعض بأن تطور العلوم الطبيعية يتحدد كلياً بمعايير "داخلية" للممارسة والعقلانية. وبالتالي، تُعد الفيزياء والرياضيات "الحالة الصعبة" للمنهج النسبي.

العلوم الهامشية:

لشفافية الحجج والأساليب في العلوم الهامشية، فإنها تُعدّ مجالاً سهلاً للدراسة. لكنها في الوقت نفسه تُعتبر حالة "ضعيفة" نظراً لأن النقص النسبي في الاتفاق حول النظريات والحقائق والممارسات التجريبية السليمة لا يسمح بالتعميم بثقة على مجالات علمية أخرى. ومع ذلك، ولأن دراسة العلوم الهامشية سهلة للغاية، فإن من الأساليب الجيدة للباحث التنقل بين مجال هامشي ومجال علمي دقيق. فالأول، وهو مثير للاهتمام في حد ذاته، يُوقّر مصدرًا قيمًا للأفكار لإجراء اختبارات أكثر صعوبة".

رغم أن العلوم الهامشية والزائفة قد تبدو سهلة الدراسة من بعض النواحي، إلا أنها مجالات صعبة لتطبيق مبادئ التناظر والحياد - وهما جوهر البرنامج النسبي.

من أهم النتائج الحاسمة في علم اجتماع العلوم المبكر، أن العلم لا يمتلك مجموعة من التقنيات المنهجية التي تُثبت أو تنفي وجود الظواهر الطبيعية بسرعة أو بشكل قاطع. من المثير للدهشة أن هذه النتيجة تظهر من خلال دراسة آثار مفهوم "المعرفة" على العمل التجريبي في المجالات المثيرة للجدل. كما تبين أن عناصر أخرى من المنهج العلمي تُشكل إشكالية. علاوة على ذلك، وُجد أن الحجج التقنية محدودة بالقيود الثقافية وتوزيع السلطة، وليس بالمعرفة التقنية "الداخلية" أو الإمكانية المنطقية.

المحور الثاني: الموجة الثالثة من دراسات العلوم: دراسات الخبرة والتجربة

في هذا الدراسة التي نشرها بالاشتراك مع روبرت ايفناز، مشكلة الشرعية ومشكلة التوسع؛ أصبحت الدراسات الاجتماعية تهتم بصنع القرار التقني في الفضاء العمومي، ويمكن صياغة المشكلة ببساطة: هل ينبغي تعزيز الشرعية السياسية للقرارات التقنية في الفضاء العام من خلال إحالتها إلى أوسع نطاق من

العمليات الديمقراطية، أم ينبغي أن تستند هذه القرارات إلى أفضل مشورة الخبراء؟ الخيار الأول يُنذر بشلل تكنولوجي، بينما الثاني يُثير معارضة شعبية

"نقصد بـ"صنع القرار التقني" تلك النقاط التي يتقاطع فيها العلم والتكنولوجيا مع المجال السياسي، وذلك لأن القضايا ذات أهمية بالغة للجمهور: هل يجب عليك تناول لحم البقر البريطاني، أو تفضيل الطاقة النووية على محطات توليد الطاقة التي تعمل بالفحم، أو الرغبة في وجود محجر في قريتك، أو قبول سلامة الكيروسين المضاد للضباب كوقود للطائرات، وما إلى ذلك. هذه مجالات يمكن لكل من الجمهور والمجتمع العلمي والتقني المساهمة فيها، فيما كان يُعتقد سابقاً أنها قضايا تقنية بحتة .

من اهم اسهامات علم الاجتماع المعرفة، SSK، عليكم وضع الثقة في العلماء للوصول للحقيقة، "ثقوا بالعلماء لأن لديهم وصولاً خاصاً إلى الحقيقة" أمراً بالغ الصعوبة. سؤالنا هو: "إذا لم يعد من الواضح أن للعلماء والتقنيين وصولاً خاصاً إلى الحقيقة، فلماذا تُقدّر نصائحهم بشكل خاص؟" نعتقد أن هذه هي المشكلة الفكرية المُحجّة في عصرنا. بما أن إجابتنا تعتمد على الخبرة بدلاً من الحقيقة، فسيتعين علينا التعامل مع الخبرة بالطريقة نفسها التي كانت تُعامل بها الحقيقة سابقاً - كثيء يتجاوز حكم التاريخ، أو نتيجة لتنافس التفسيرات. سيتعين علينا التعامل مع الخبرة على أنها "حقيقية"، وتطوير "نظرية معيارية للخبرة".

التوتر بين ما سنسميه "مشكلة الشرعية" و"مشكلة التوسيع". على الرغم من أن دراسات العلوم قد حلت مشكلة الشرعية من خلال إظهار أن أساس صنع القرار التقني ينبغي توسيعه ليشمل ما هو أبعد من نطاق الخبراء، إلا أنها فشلت في حل مشكلة التوسيع: "إلى أي مدى ينبغي أن تمتد المشاركة في صنع القرار التقني؟" بعبارة أخرى، أظهرت دراسات العلوم أن الخبرة العلمية والتقنية تتجاوز عمل العلماء والتقنيين المعتمدين رسمياً، لكنها لم توضح لنا مقدار هذا التجاوز.

الهدف بناء نظرية معيارية للخبرة، وعلاقة لذلك عملية صنع القرار التقني، اكتشاف أساس منطقي منهجي لنظرية معيارية للخبرة تتوافق مع المعرفة العلمية والتقنية، وتساهم في النظرية المعيارية لصنع القرار التي تناولها آخرون .

ثلاثة موجات من الدراسات الاجتماعية للعلوم:

الموجهة الأولى: في الخمسينيات والستينيات كان المحللون الاجتماعيون يهدفون عموماً إلى فهم وتفسير نجاح العلوم بشكل فعال، بدلاً من التشكيك في أسسها، وكانت العلوم ذات سلطة، وبالتالي كان صنع القرار التقني بيد العلماء فقط

الموجهة الثانية: من دراسات العلوم

الموجة التالية من دراسات العلوم، التي بدأت في أوائل سبعينيات القرن العشرين، ولا تزال مستمرة حتى اليوم، يُشار إليها غالباً باسم "البنائية الاجتماعية"، على الرغم من تعدد مسمياتها وتنوعها. ومن أهم هذه التنوعات علم اجتماع المعرفة العلمية. وقد أظهرت الموجة الثانية ضرورة الاعتماد على "عوامل غير علمية" لحسم النقاشات العلمية والتقنية، فالمنهج العلمي، والتجارب، والملاحظات، والنظريات وحدها لا تكفي. ومع إعادة تعريف العلم كنشاط اجتماعي، وجّهت دراسات العلوم الانتباه إلى استخدامات المعرفة العلمية في المؤسسات الاجتماعية كالمحاكم، والمدارس، وعمليات صنع السياسات كالتحقيقات العامة. إلا أن التركيز على "البناء الاجتماعي" للعلم، أدى إلى أنه عند مناقشة الخبرة، غالباً ما ينصب التركيز على منح لقب "خبير"، وعلى كيفية انتقال مركز الخبرة المعتمدة بين المؤسسات .

الموجة الثالثة :

إنّ الاستعداد لإيجاد مبرر لمكانة خاصة للعلم والتكنولوجيا، بعد تفكيك الكثير من المفاهيم في ظل الموجة الثانية من دراسات العلوم، يعني إعادة بناء المعرفة، يجب أن تُركّز الموجة الثالثة من دراسات العلوم على دور الخبرة كفئة تحليلية وفئة فاعلة، وهذا سيُتيح صياغة توجهيات، بدلاً من مجرد وصف، حول دور الخبرة في المجال العام.

"دعونا نحاول طرح المسألة بطريقة أخرى. تتناول الموجة الثانية مشكلة: "كيف يتشكل الإجماع العلمي؟" يُعدّ شكل من أشكال النسبية، فيما يتعلق بنتيجة هذا الإجماع، أمراً حيويّاً لتجنب الوقوع في حلقة مفرغة. تتناول الموجة الثالثة مشكلة: "كيف تُتخذ القرارات بناءً على المعرفة العلمية قبل وجود إجماع علمي مطلق؟" لا تحل الموجة الثالثة محل الموجة الثانية لأن المشكلات مختلفة. بالنسبة للموجة الثالثة، هناك حاجة إلى شيء إضافي إلى جانب النسبية. إحدى طرق معالجة مشكلة الموجة الثالثة هي النظر في كيفية منح العلم الشرعية في المجالات السياسية والقانونية وغيرها، وقد تناولت العديد من الكتابات الموجودة في دراسات العلوم، والتي تتناول العلم في المجال العام، هذه المشكلة بهذه الطريقة.

الموجة الثالثة ترزو على الخبر العلمي، والهدف هو معالجة من ينبغي له ومن لا ينبغي له المساهمة في صناعة القرار السياسي التقني استناد الى خبرته، ومعرفة الحقوق الممنوحة للخبارؤ وعلاقتها بالمصالح الاجتماعية، وكذلك معرفة الثنائيات والحدود بين التخصصات العلمية، "ويمكن إجراء دراسات أخرى حول كيفية قيام الفاعلين بإنشاء الحدود ومراقبتها."

دراسة العلاقة بين الخبرة والكفاءة، وهناك ثلاثة أنواع من الخبرة:

1 (انعدام الخبرة: هذه هي درجة الخبرة التي ينطلق بها الباحث الميداني؛ وهي غير كافية لإجراء تحليل سوسيولوجي أو القيام بعمل ميداني شبه تشاركي).

2 (الخبرة التفاعلية: وهذا يعني امتلاك خبرة كافية للتفاعل بشكل شيق مع المشاركين وإجراء تحليل سوسيولوجي).

3 (الخبرة المساهمة: وهذا يعني امتلاك خبرة كافية للمساهمة في علم المجال قيد التحليل.x).

ثانيا: دافيد بلور والبرنامج القوي David Bloor :

كان ديفيد بلور، أحد أوائل كبار الباحثين في جامعة إدنبرة من أبرز الداعمين لفكرة "البرنامج القوي" البحثي ضمن علم اجتماع المعرفة العلمية. كانت حجة روبرت ميرتون أن هناك أسبابا خارجة عن نطاق العلم تدفع الاكتشافات العلمية، فالممارسة العلمية موجودة داخل المجتمع بنظامها الخاص من المكافآت والتوظيف، "اعتبر هذا طموحا محدودا من جانب علماء الاجتماع (من قبل مؤيدي البرنامج القوي)، يصف بلور إصرار علم اجتماع ميرتون على إبقاء العلم خارج نطاق البحث السوسيولوجي المتعمق بأنه نابع من "انعدام الجرأة والإرادة".

تُعدّ أفكار بلور حول برنامج قويّ مبادئ أساسية ينبغي أن يتبعها علم الاجتماع المعرفة العلمية، ينبغي أن يُحدّد علم الاجتماع المعرفي ما يلي:

1. ينبغي أن يدرس العلم بطريقة سببية. ينبغي أن يهتم علم الاجتماع المعرفي بالظروف التي أدّت إلى ظهور المعتقدات.

2. سيكون محايدًا في دراسة النظريات العلمية سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، عقلانية أو غير عقلانية، ناجحة أم فاشلة.

3. بغض النظر عن صحة النظرية أو خطئها، ينبغي أن يهدف علم الاجتماع المعرفي إلى تفسير كليهما بطريقة متناظرة.

4. ينبغي أن يتمتع علم الاجتماع المعرفي بقدر من التأمل الذاتي، بحيث تكون التفسيرات المقدمة حول المعتقدات قابلة للتطبيق على علم الاجتماع أيضاً. وإلا، فإن علم الاجتماع المعرفية العلمية سيُفند ادعاءاته بنفسه.

برنامج قوي في علم الاجتماع المعرفية:

يطرح بلور سؤالاً عن أهلية علم اجتماع المعرفة في معرفة جوهر المعرفة العلمية وطبيعتها؟ حيث يعتقد برايه كثير من علماء الاجتماع أنه لا يستطيع فعل ذلك، فيرون أن المعرفة في حد ذاتها بمعزل عن الظروف المحيطة بإنتاجها؛ تتجاوز نطاق بحثهم، إنهم بذلك يحدون طواعية من نطاق دراساتهم.

هل يعجز عالم الاجتماع عن إيجاد النظريات والأساليب اللازمة للتعامل مع المعرفة العلمية؟ بالطبع لا. فتخصصه يوفر له دراسات نموذجية عن معارف الثقافات الأخرى.

ادن، انعدام الجرأة والارادة هو الذي حال دون دراسة السوسولوجيا للمعرفة العلمية و فقط، لذلك سيحاول بلور ادحض الحجج التي تمنع هذا، وسيقترح ما عرف بالبرنامج القوي، يحدد بلور المعرفة التي يهتم بدراستها علم الاجتماع المعرفة، فبدلاً من تعريفها على أساس انها اعتقاد صحيح، فان المعرفة بالنسبة لعالم الاجتماع هو كل ما يعتبره الناس معرفة، وهي تلك المعتقدات التي يتمسك بها الناس بقى ويعيشون وفقاً لها.

يركز علم الاجتماع المعرفة على توزيع المعتقدات والعوامل المختلف التي تؤثر فيه؟ كيف تنقل المعرفة؟ ما مدى استقرارها؟ ماهي العمليات التي تدخل في انشائها واستمرارها؟ وغيرها من التساءلات التي يجب عنها علماء الاجتماع.

وعلى علم الاجتماع المعرفة ان يلتزم بالمبادئ الأربعة التالية:

1- سيكون سببياً، أي أنه يهتم بالظروف التي تؤدي إلى الاعتقاد أو حالات المعرفة. وبطبيعة الحال، ستكون هناك أنواع أخرى من الأسباب، إلى جانب الأسباب الاجتماعية، التي ستساهم في إحداث الاعتقاد.

2- سيكون محايداً فيما يتعلق بالصدق والكذب، والعقلانية واللاعقلانية، والنجاح والفشل. وسيحتاج كلا جانبي هذه الثنائيات إلى تفسير.

3- سيكون متناظراً في أسلوب تفسيره. فالأنواع نفسها من الأسباب ستفسر، على سبيل المثال، المعتقدات الصحيحة والخاطئة.

4- سيكون انعكاسياً. من حيث المبدأ، يجب أن تكون أنماط تفسيره قابلة للتطبيق على علم الاجتماع نفسه. ومثل شرط التناظر، فإن هذا استجابة للحاجة إلى البحث عن تفسيرات عامة. إنه شرط أساسي واضح، وإلا فإن علم الاجتماع سيكون بمثابة دحض دائم لنظرياته الخاصة.

السببية والحياد والتناظر والانعكاسي

موانع تأسيس علم الاجتماع المعرفي من منظور دافيد بلور

يرى بلور ان هناك مجموعة من الموانع والعوارض التي تحول دون تأسيس علم الاجتماع المعرفة، وحددها في النقاط الاتية:

استقلالية المعرفة:

تنبع إحدى أهم الاعتراضات على علم اجتماع المعرفة من فكرة بأن بعض المعتقدات لا تحتاج إلى أي تفسير سببي. ويكون هذا الأمر قويا خاص عندما تُعتبر المعتقدات المعنية صحيحة أو عقلانية أو علمية أو موضوعية. في حين، ان هذه المعتقدات كلها تحمل بعدا نسبيا .

ينتقد بلور لاكتوس عندما يتحدث عن البعد الخارجي للعلم والبعد الداخلي، وان فلسفة العلوم تهتم بالجانب الداخلي ، بينما عالم الاجتماع يهتم بالعبد الخارجي.

ويرى إن البرنامج القوي يتمتع بنوع من الحياد الأخلاقي، ، كما أنه يفرض على نفسه ضرورة نفس النوع من العمومية التي تتطلبها العلوم الأخرى. وسيكون من الخيانة لهذه القيم، ولمنهج العلم التجريبي، اختيار تبني المنظور الغائي.

حجة التجريبية

تقوم الفرضية الأساسية للنموذج الغائي على أن السببية مرتبطة بالخطأ أو القصور. وهذا يمثل شكلاً متطرفاً من عدم التناظر، ولذا يُعد البديل الأكثر جذرية للبرنامج القوي الذي يُصر على أنماط تفسير متناظرة. مع ذلك، قد يكون من الممكن انتقاد البرنامج القوي من منظور أقل تطرفاً. أليس من المعقول القول إن بعض الأسباب تؤدي إلى اعتقاد خاطئ، بينما تؤدي أسباب أخرى إلى اعتقاد صحيح؟ وإذا تبين

أيضاً أن أنواعاً معينة من الأسباب ترتبط بشكل منهجي بالاعتقاد الصحيح والخاطئ على التوالي، فإن هذا يُشكّل أساساً آخر لرفض المنظور المتناظر للبرنامج القوي.

يرى بلور ان معرفة المجتمع لا تشير بالضرورة إلى التجربة الحسية لأفراده، أو إلى يُمكن تسميته بمعرفتهم الفطرية، بل هي بالأحرى رؤيتهم الجماعية للواقع، فإن معرفة ثقافتنا، كما تُمثلها علومنا، ليست معرفةً بواقعٍ يُمكن لأي فردٍ أن يُجرِّبه أو يتعرّف عليه بنفسه، بل هي ما تُخبرنا به أفضل نظرياتنا المثبتة، وأكثر أفكارنا استنارة، بغض النظر عمّا قد تُوجي به الظواهر.

حجة التناقض الذاتي

إذا كانت معتقدات الفرد ناتجة كلياً عن عوامل خارجية، وإذا كان هناك بالضرورة عنصرٌ مُستمدٌ من المجتمع، فقد بدا لكثير من النقاد أن هذه المعتقدات حتمًا خاطئة أو غير مُبررة. وبالتالي، تبدو أي نظرية اجتماعية شاملة للمعتقدات وكأنها تقع في فخ، أليس من واجب علماء الاجتماع الاعتراف بأن أفكارهم مُحددة، بل ومُحددة جزئيًا اجتماعيًا؟

وبالتالي، فإن علم اجتماع المعرفة نفسه غير جدير بالتصديق، أو أنه يجب أن يستثني الدراسات العلمية أو الموضوعية، وبالتالي يقتصر على علم اجتماع الخطأ. لا يمكن أن يكون هناك علم اجتماع معرفة متسق ذاتيًا وسبي وعمام، وخاصة المعرفة العلمية.

حجة المعرفة المستقبلية

ينطلق النقاد في نقد علم الاجتماع المعرفة انه لا يمكننا التنبؤ، مثلا ظاهرة الاختلاف في الاكتشافات هل يمكن ان تتكرر هذه الظاهرة؟

الاحتمية الاجتماعية والاحتمية التاريخية فكرتان مترابطتان ترابطاً وثيقاً. يتساءل من يؤمنون بوجود قوانين تحكم العمليات الاجتماعية والمجتمعات عما إذا كانت هناك قوانين تحكم أيضاً تعاقبها وتطورها التاريخي. إن الاعتقاد بأن الأفكار محددة بالبيئة الاجتماعية ليس إلا شكلاً من أشكال الاعتقاد بأنها، بمعنى ما، نسبية للموقع التاريخي للفاعل. لذلك، ليس من المستغرب أن تتعرض سوسيولوجيا المعرفة لانتقادات من أولئك الذين يعتقدون أن فكرة القوانين التاريخية نفسها مبنية على الخطأ والتشويش.

"أن سبب اعتبار البحث عن القوانين خاطئاً في أنه إذا أمكن العثور عليها، فإنها ستؤدي إلى إمكانية التنبؤ. ويمكن لعلم الاجتماع الذي يقدم قوانين أن يسمح بالتنبؤ بالمعتقدات المستقبلية. من حيث المبدأ، يبدو

من الممكن معرفة طبيعة فيزياء المستقبل، تمامًا كما هو ممكن التنبؤ بحالات النظام الميكانيكي المستقبلية. إذا عُرفت قوانين الآلية، إلى جانب معرفة موضعها الابتدائي، والكتل والقوى المؤثرة على أجزائها، فإنه يمكن التنبؤ بجميع المواضع المستقبلية .

3. الدراسات المختبرية وعلم المنهجيات الإثنية عند مايكل لينش Michael Lynch :

يسعى لينش في حقل علم الاجتماع العلوم، من تطبيق منهجية الاثنوغرافية في دراسة الممارسات العلمية في المخابر، اتخذ العلماء الاجتماع المعرفة العلمية موضوعا للباحث، عبر محاولة معرفة الظروف والسياقات الاجتماعية والثقافة التي سمحت بتطور العلم او كبحته، والسياق الذي يشجع الباحثين على الالتحاق بالمختبرات العلمية، وكظلك العلم كمؤسسة مستقلة نسبيًا في المجتمعات الحديثة.

"

في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ذهب العديد من علماء الاجتماع الذين استلهموا من "البرنامج القوي" ولكنهم لم يكونوا راضين عن نوع التفسيرات التي قدمها، إلى المختبرات العلمية لمشاهدة العلوم المعاصرة وهي تتطور بشكل مباشر.

منذ أوائل ثمانينيات القرن الماضي، شاع بين علماء اجتماع العلوم (بمن فيهم العديد ممن شاركوا في المرحلة الثالثة) القول بأن الدراسات المختبرية شديدة التخصص، ومنغمسة في خصوصيات الأماكن والتفاعلات الاجتماعية. ويُقال لنا إن المطلوب هو عمل يربط محتوى البحث العلمي بمجالات اجتماعية أوسع. وقد سعى كل من كالون، ولاتور، ولو، وكنور-سيتينا، وأبيرام، وغيرهم إلى سد الفجوة بين المستويين الجزئي والكلي من خلال إظهار أن المحتوى المادي للبحوث التي أُجريت منخرط في شبكات غير متجانسة: روابط بين المختبرات، والموردين الصناعيين، والوكالات الحكومية؛ ودوائر اقتصادية تربط بين الأفراد، والنصوص، والأجهزة، والمعدات؛ وأخيرًا، صراعات من أجل أشكال مختلفة من التقدير، مثل الإسناد البليوغرافي. وتتصدر العلوم المؤسسية المشهد مرة أخرى، مع اهتمام أكثر وضوحًا بالظروف الطارئة المتعلقة بدراسات حالات محددة، وربط المستويين الكلي والجزئي .

تتناول دراسة أخرى، أجراها لينش، الممارسات الروتينية في مختبر علم الأعصاب، وتناقش بديل "البنائية" و"الموضوعية القابلة للإثبات". يُظهر منهج لينش في تناول هذا البديل أنه لم يعد من بين المسائل العامة التي تُناقش من منظور اجتماعي للعلم، بل يراه نقطةً يجب معالجتها من الداخل، من خلال مراقبة الممارسات المختبرية الروتينية. ويشير إلى الخصائص المحددة للصورة المجهرية الإلكترونية، أو إلى التراكيب

التشريحية أو الكيميائية الحيوية التي يُعتقد أنها مسؤولة عن عملية التجديد. وتُشير محاولات العاملين في المختبر لتنقية مصادرهم الوثائقية من أي شوائب أو ضوضاء، وبالتالي الوصول إلى قراءة واقعية للبيانات المعروضة أمامهم، إلى أن البنائية والواقعية، بالنسبة لهم، هما نتاجان ثانويان عرضيان وظرفيان لعملهم، وليساً منظورين عامين يُثريان فهمنا للعلم .

لا تُقدّم هذه الدراسات إجابةً واضحةً عن كيفية استخلاص العلماء من ممارساتهم الموضوعية العملية للبراهين أو الكيانات أو العلاقات أو الخصائص التي يُثبتونها. ومن خلال البحث الإثنوميثودولوجي، ندرك أن الأنشطة المحلية والظرفية والعرضية الخاصة بهذا التخصص هي المسؤولة عن تقديم هذه الإجابة.

إذا أراد الباحثون الوصول إلى "المضمون الحقيقي" للمعرفة العلمية، فهم بحاجة إلى فهم أعمق للعمل الدقيق الذي يشكل البحث المختبري. من السابق لأوانه الجزم بأن النشاط العلمي بناءً، وبالتالي، يحمل في طياته مخططات أوسع للتنظيم الاجتماعي.

علماء المنهجيات الإثنية بتحليل سوسولوجي للعالم اليومي. فالأفعال اليومية ليست مجهرية، بل إن إنتاجها وحسابها يحدث في نطاق الوجود الإنساني، وبما أن العالم الذي يعمل فيه المحللون الاجتماعيون، وكذلك أفراد المجتمع، هو عالم الحياة اليومية، فإن البنية التكوينية لهذا العالم تحتوي باستمرار على تجريد وحدات تنظيمية أشمل وتحافظ عليه.

يرى لينش أن اختزل النقاش في علم اجتماع العلوم إلى مواقف عامة لتفسير كيفية توصل العلماء إلى اتفاق. لا يميل علم المنهجيات الإثنية إلى تبني مواقف عامة كالعقلانية والواقعية والبنائية، لأنه يُعيد تعريف المجال الذي تُجرى فيه هذه النقاشات، مُعاملاً كل موقف منها كحجة ذات صلة عرضية وظرفية. لم يعد الأطراف المعنية مؤيدين لأي موقف مُحدد في الدراسة الاجتماعية للعلوم، بل أصبحوا علماء وفنيين يُقدمون ويدافعون عن أدلة وتأكيدات مُحددة فيما بينهم. على أسئلة من قبيل: هل العلم نشاط عقلائي؟، يُجيب علماء المنهجيات الإثنية: الأمر نسبي؟

علم منهج الاثنوميثودولوجيا في الممارسات العلمية

إن الأسئلة التي يطرحها علماء المنهجيات الإثنية حول ممارسات علماء الاجتماع هي نفسها التي يطرحونها حول ممارسات الباحثين في العلوم الطبيعية: كيف تُنسب الهويات وتُرسى المعادلات داخل مجال البحث؟ كيف يمكن استخلاص بيانات جيدة من "الضوضاء" المحيطة؟ كيف تشير الممارسات والمناقشات المحلية إلى أسس "العالم الواقعي"؟ وأخيراً، كيف يصبح الانضباط أو الدقة عنصرين من عناصر الممارسة

الشائعة؟ هذه ليست أسئلة نابعة من التشكيك في صحة النتائج التي يحصل عليها العلماء، ولا من محاولة متسرعة لتأسيس أو تبرير الممارسات العلمية. على العكس من ذلك، تسعى هذه الأسئلة إلى أن نفهم كيف يتمكن البشر، في كل مجال من المجالات التي تنطبق عليها، من خلال العمل جنباً إلى جنب مع أدوات تخصصهم من تشكيل نظام للأشياء ينطبق على الجميع.

يتطلب تحويل الأفعال والخطابات المعقدة تقنياً إلى بيانات سوسولوجية إلى شرح الأفعال التقنية لقراء المجالات السوسولوجية. ولا بد من استخدام أساليب التعليق والتفسير لنقل معنى المحتوى التقني مع مراعاة قلة معرفة الجمهور بهذا المجال.

في مقال بالاشتراك مع جف كولتر، بعنوان: الاستكشاف والاستكشاف العلمي في العلوم، يتناول لينش، لم تهتم فلسفة العلم بموضوع الاستكشاف وترك الأمر لعلماء الاجتماع وعلماء النفس، كذلك تم التمييز في القرن العشرين في لفلسفة العلم بين سياق الاستكشاف وسياق التبرير، وروا ان السياق التبرير اكثر قابلية للتحليل المنطقي بينما تم اهمال سياق الاستكشاف على أساس انه تخمينيات نفسية.

وخلص الى النتائج الاتية:

كلمة "اكتشاف" كلمة عادية تكتسب دلالة خاصة في سياق البحث العلمي، حيث تشير إلى إنجاز أصيل بمعنيين: (1) إنجاز إبداعي غير مسبق يُنسب إلى شخص أو مجموعة متعاونة، و(2) اكتشاف شيء جديد (قانون أو مبدأ طبيعي غير معروف سابقاً، أو مادة أو نوع لم يتم توصيفه من قبل).

وقد ارتبط الاكتشاف بهالة من الغموض في كل من الروايات الشعبية والفلسفية، إذ يُسَلَّم بأن الاكتشافات لا تتبع قواعد أو صفات جاهزة، بل تبدو أحياناً وكأنها تأتي من العدم. عندما يُصاغ اكتشاف سابق كإجراء خطوة بخطوة، ويتبعه باحثون آخرون ويحصلون على النتيجة نفسها، تكون النتيجة تكراراً لا اكتشافاً. إن الاقتراح الوارد في هذه الورقة أقل غموضاً: إذا كان الاكتشاف العلمي نتيجة (محتملة ولكنها مشروطة) للعمل المخبري، فلا يمكن تقسيمه إلى أي مجموعة من الخطوات الإجرائية أو الروتينية أو الأداءات المكونة.

الاكتشاف ليس ظرب حظ ولا عقل كبير مدبر بل هو، إن "تحقيق" الاكتشاف لا يتم بواسطة جهة "خارجية" منفصلة تُضاف إلى العمل العملي الروتيني؛ بدلاً من ذلك، فإن وصف هذا العمل في حالة يتم فيها الفضل في اكتشاف ما، لجميع الأغراض العملية والزمنية والمجتمعية، يمكن أن يوفر فهماً مفصلاً للغاية، وإن لم يكن تفسيراً، للشروط العملية لإمكانية حدوث الاكتشاف.

محاضرة رقم 05: علم اجتماع الفعل التواصلي عند يورغن هابرماس Jürgen Habermas

أولاً: الجذور الفلسفية للنظرية الفعل التواصلي عند هابرماس

1- القطيعة مع مدرسة فرانكفورت: من "نقد العقل الأداتي" إلى "إعادة بناء-العقلانية"

2- التحول اللغوي: (Linguistic Turn)

ثانياً: أربعة مفاهيم سوسيولوجية من الفعل الاجتماعي

ثالثاً: المكونات الثلاثة للفعل التواصلي

رابعاً: الثنائية البنيوية (عالم الحياة والنظام او المنظومة):

تمهيد:

تنتمي نظرية الفعل التواصلي إلى مجموعة النظريات الحديثة ما بعد الماركسية. مؤلفها هو يورغن هابرماس (1929-2026)، الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني الذي ينتهي إلى الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت النقدية، يمكن تمييز عدة مراحل في تطوره الفكري والعلمي، وهي: التأويلية التأميلية، والتجريبية النقدية، والماركسية الجديدة، والتواصلية النظرية، وقد مثل هابرماس الماركسية الجديدة من خلال نظريته النقدية للمجتمع، وهو أحد أكثر المؤلفين إنتاجًا واستشهادًا في علم الاجتماع الحديث، كما أنه الأكثر ترجمةً.

في مستهل كتابه نظرية الفعل التواصلي، يقول هابرماس أن نظرية الفعل التواصلي نظرية على النظرية، بل بداية نحو نظرية في المجتمع، وهي نوع من التأسيس النظري-اللغوي للعلوم الاجتماعية، وبلا ريب كان لي مثل وقدة في نظرية الفعل التي طورها تالكوت بارسونز في عام 1937 في كتابه بيئة الفعل الاجتماعي بما تقوم به من ربط بين إعادة البناء التاريخي للنظرية وتحليل مفاهيم، لذلك نسعى فيه المحاضرة الى تبين أسس وقواعد نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس

-أولاً: الجذور الفلسفية للنظرية الفعل التواصلي عند هابرماس:

فهم نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس يحتم علينا أن نلقي نظرة على الخلفية الفلسفية لهذه النظرية وكيف تشكلت ليديه، ونرى ان هناك رافدين أساسية لها، الأول ممثلاً في مدرسة فرانكفورت التي ألهمته بأبحاثها النقدية تجاه الحداثة الغربية والعقل الأدوات، والثاني، المنعطف اللغوي مع نظرية الأفعال عند اوستين و نظرية الألعاب عند لوديف فنغشتيان.

1-القطيعة مع مدرسة فرانكفورت : من العقلانية الأداتية إلى العقلانية التواصلية

تعد مدرسة فرانكفورت واحد من المدارس الفكرية التي نالت شهرة في القرن العشرين، يرجع تأسيسها الى معهد البحث الاجتماعي في المانيا سنة 1923 على يد هوركهايمر وأدورنو، " فلقد تشكلت النظرية النقدية في البوتقة الفكرية الماركسية، إلا أن ممثليها الرواد رفضوا منذ البداية الحتمية الاقتصادية والنظرية المرحلية للتاريخ، واي اعتقاد جبري في الانتصار المحتوم للاشتراكية."

ضمت هذه المدرسة الفكرية اعلاما بارزين، تيدور ادورنو، واريك فروم، هيربرت ماركيز، فالتر بنجامين، ويورغن هابرماس، و من الباحثين من تناول التاريخ الفكري لهذه المدرسة باستخدام الأجيال، وقسمها الى

ثلاثة أجيال، يمثل هابرماس جيلها الثاني، وينطلق فلاسفة النظرية النقدية من مسألة العقل والعقلانية من ملاحظات أساسية، وهي: "أن الأنوار التي كان هدفها يتمثل في تحرير الإنسان انقلبت الى ضد ذلك تمام. اذ كرست العبودية القديمة للإنسان، واذا كان تابعا للطبيعة في السابق، فانه تابع اليوم، للمجتمع، واستمرت بالتالي علاقات القوى المبينة على الخضوع والتفاوت واقصاء الحرية "

انتقد فلاسفة النظرية النقدية العقلانية الأداتية، التي تجلت في البعد التقني الاقتصادي، والتي حاصرت الانسان في الزمن المعاصر، لذلك سينخرط هابرماس في مشروع نقد عقل الاداتي، ويفختلف معهم في دعوتهم إلى تأسيس عقل نقدي، لهذا، بعتر جهده الفلسفي سدا للثغرات التي وجدها في النظرية النقدية، ويراح يدافع عن العقل والعقلانية التي وجد فيها أساس لنظرية اجتماعية نقدية جديدة، ومن اجل هذا الهدف وجد نفسه في مواجهة مع مشكلات الحداثة، وما آل اليه العقل الحديث، كما وجد نفسه أيضا في حالة مواجهة مع كل تيارات الفلسفية المضادة للحداثة، وتيارات ما يسمى ما بعد الحداثة ونزعاتها التفكيكية للعقل. "

برر فكرة ان الفعل العقلاني الهدف هو طبقا لبنيته ممارسة الضبط، لذلك فان عقلنة علاقات الحياة حسب معيار هذه العقلانية تتساوى بمعناها مع مأسسة سيطرة لا تصبح معروفة بوصفها سيطرة سياسية: اذ لا يتخلى العقل التقني لمنظومة اجتماعية للفعل العقلاني الهدف عن مضمونه السياسي " ، ويرى أن من اقوى العلوم الاجتماعية التي اهتمت بالعقلانية الحديثة ، في مفاهيمها الأساسية، هي التي تتصل بأيسر ما يكون بإشكالية العقلانية، وهذا امر له ، كما تبين ذلك مقارنة مع تخصصات أخرى، أسباب راجعة الى تاريخ العلوم والى الموضوعات المدروسة. "

السوسيولوجيا كحقل معرفي له القدرة المنهجية التكاملية على فهم العقلانية، لأن السوسيولوجيا هي الوحيدة من فرع العلوم الاجتماعية التي حافظت على صلة بمشاكل المجتمع بكامله، فقد ظلت أيضا على الدوام نظرية في المجتمع، وبذلك لم تقص مسائل العقلنة ولا اعادت تعريفها ولا قطعها الى حجام صغيرة كما فعلت تخصصات أخرى. "

يفهم هابرماس الفعل العقلاني على انه فعلا ذاتيا او اختيارا عقلانيا، او ربما تركيا من الاثنين، " يتشكل الفعل الاداتي حسب قواعد تقنية تقوم على المعرف التجريبية...يتجه السلوك الاختيار العقلاني حسب استراتيجيات تقوم على معرفة تحليلية وهي تتضمن استنباطات من قواعد ذات سوية عالية ومبادئ عامة؛ هذه القاضايا تستنبط إما صوابا وإما خطأ" ، انطلق هابرماس من مفهوم العقلانية عند ماكس فيبر وعمل

على توسيعه، بقوله: " نحتاج الى نظرية في الفعل التواصلي، اذا ما اردنا ان نستأنف على نحو مناسب إشكالية العقلنة الاجتماعية، التي تم استبعادها في شكل واسع في دائرة النقاش السوسولوجي المختص منذ ماكس فيبر "

البديل بالنسبة لها برماس للعقلانية الأداة يتمثل في العقلانية التواصلية: " فالعقلانية لا تهتم امتلاك المعرفة بمقدار ما تهتم الطريقة التي بها تقوم الذوات القادرة على الكلام وعلى الفعل باكتساب المعرفة واستخدامها، ففي التعبيرات اللغوية يتم الإفصاح صراحة عن معرفة ما، معرفة ضمنية ما عن نفسها" ، فالعقلانية الثاوية في صلب الممارسة التواصلية انما تمتد على مدى طيف أوسع نطاقا، فهي تحيل على اشكال عديدة من الحجاج كما على المقدار ذاته من الإمكانيات لمتابعة فعل تواصلي بوسائل التفكير" ، وعليه، نقد العقلانية الادائية البديل ليس العقلانية النقدية، بل العقلانية التواصلية، "الاثباتات المعللة والافعال الناجحة هي بلا ريب علامة على العقلانية، فالذوات التي تكون قادرة على الكلام وعلى الفعل والتي لا تنخدع في شأن الوقائع والعلاقات بين الغاية والوسيلة، انما نسميها ذوات عقلانية" ، يفهم هابرمارس العقلانية التواصلية: "بوصفها استعدادا خاصا بذوات قادرة على الكلام والفعل. وهي تفصح عن نفسها من خلال طرائق في السلوك، توجد لها علل جيدة في كل مرة."

-التحول اللغوي: (Linguistic Turn)-

تأثر هابرمارس بفلسفة اللغة (أوستن وسيرل) وكيف جعل من "اللغة" أساساً للفعل الاجتماعي بدلاً من "العمل"، تأثر هابرمارس بالعديد من علماء اللغة ومن بينهم اللودويغ فينغتساين ونظريته حول ألعاب اللغة، وسيرل واوستين ونظريته عن أفعال الكلام التقريرية والانجازية، " مع دراسو أفعال اللغة التي بداها اوستين austin يوضح واضحا بان التلفظ ينبغي التفكير فيه ليس كتعبير لتمثلات تكون سابقة لوجوده، وانما بكونه صورة لنشاط نوعي، بواسطته ينبنى المعنى، لفاعلين يت ضحون بكيفيو متبادلة، والذي يمتلك شروطه الخاصة في النجاح والافخاق "

النموذج التواصلي للفعل عند هابرمارس، والذي حدد تقاليد العلوم الاجتماعية المتصلة بالتفاعلية الرمزية لدى ميد، ومفهوم فتغاشتاين عن الألعاب اللغوية، ونظرية الأفعال الكلامية عند اوستين وتاويلية غادامير، انما يراعي كل وظائف اللغة بمقدرا، " فليست اللغة بالنسبة الى الانموذج التواصلي للفعل بذات أهمية الا من زاوية تداولية، حيث ان المتكلمين باتخدمهم جملا موجهة نحو التفاهم ، يضطلعون بعلاقات ما مع العالم، "

"وتؤدي اللغة، وهي الوسيلة الأخرى التي يحول بواسطتها البشر بيئتهم، تؤدي الى ظهور ما يدعوه هابرمان بالمصلحة العملية، وهذه بدورها تؤدي الى ظهور العلوم التأويلية، وينصب اهتمام المصلحة العملية على التفاعل البشري-أي على طريقة تاويل افعالنا تجاه بعضنا لبعض، والسبل التي نتفاعل بها اطار التنظيمات الاجتماعية." "

ثانيا: أربعة مفاهيم سوسولوجية من الفعل الاجتماعي

تحتاج العقلانية التواصلية الى إيضاح تداولي- صوري لمفهوم الفعل التواصلية، فمفهوم العقلانية التواصلية ينبغي ان يحلل ونحن نتخذ من التفاهم اللغوي خيطا هاديا لنا. وان مفهوم لتفاهم انما يحيل على توافق محفز عقلانيا حاصل بين المشاركين ، يقاس بناء على اجاعاؤات الصلاحية القابلة للنقد "

-ومن هذا المنطلق، بين هابرمان من الناحية الانطولوجية أربعة اشكال من الفعل تكون مؤسسة للنظرية العلوم الاجتماعية، ويحلل عقلانية هذه الأفعال بناء على العلاقة بين الفاعل وعالم الحياة، انطلاقا من نظرية المعرفة عند ارل بوبر عن العووامل الثالث، عالم الموضوعات الفيزائية، وعالم حالات الوعي والورح، وعالم المضامين الموضوعية كالأفكار، يرى بتوازي هابرمان ان هناك أربعة أنواع من الأفعال، لكل عالم له فعله، ونسج عوالم ثلاثة، عالم موضوعي، وعالم اجتماعي، وعالم الذات، مفهومات الفعل ، بحسب العلاقة فاعل-عالم

1-الفعل الغائي:

فالفاعل يحقق هدفا او بعبارة أخرى يتسبب في حدوث حالة منشودة، وذلك بان يختار في الوضعية المعطاة الوسائل الواعدة بالنجاح ويستعملها بطريقة مناسبة، اما المفهوم المركزي فهو القرار الموجه نحو تحقيق هدف، ، ويتوسع النموذج الغائي للفعل نحو النموذج الاستراتيجي، وذلك حينما يمكن ان يدخل في حساب النجاح الخاص بالفاعل توقع القرارات الخاصة بفاعل آخر أو انتظارها في الأقل يفعل فعلا مسددا نحو هدف ما.

2-الفعل المنظم:

بحسب معايير بالسلوك الذي يأتيه الفاعل هو من حيث للمبدأ المعزول ، ويجد في عالمه المحيط فاعلين اخرين، بل أعضاء مجموعة اجتماعية توجه فعلها بناء على قيم مشتركة" ، والمفهوم المركزي في اتباع المعايير انما يعني الاستجابة الى التوقعات والانتظارات المعممة في شأن القيام بسلوك ما.

3-الفعل الدرامي:

لا يتعلق من منظور هابرماس بادئ الامر لا بالفاعل المعزول ولا بالعضو في مجموعة اجتماعية، بل بالمشاركين في تفاعل ما الذين يشكل بعضهم بالنسبة الى بعض جمهورا، أمام عينه هم يعرضون انفسهم، فالفاعل يثير في جمهوره صورة معينة، انطباعا ما عن ذاته، من جهة ما يكشف النقاب قصدا عن ذاته بهذا المقادر او ذلك" ، والمفهوم المركزي لتقديم النفس لا يعني سلوكا عفويا في العبارة، بل البناء الاسلوبي للعبارة عن تجارب خاصة في الحياة، على نحو ذي علاقة بالجمهور.

4-الفعل التواصلي:

إنما يتعلق بالتفاعل بين ذاتين في الأقل، قادرتين على الكلام وعلى الفعل، من شأنهما ان تدخلتا في علاقة بينشخصية (سواء بوسائل لفظية ام بوسائل خارج عن اللفظ)...والمفهوم الرمزي للتأويل انما يتعلق في المقام الأول بالتفاوض على تعريفات الوضعية، القادرة على تحقيق الاجتماع." ، لذلك تحتل اللغة مكانة محورية في هذا الانموذج من الفعل الإنساني.

يعتبر النموذج الفعل الغائي فعلا عقلانيا بينما بقية الأفعال الأخرى، فتظهر كان لا علاقة لها بالعقلانية او العقلنة الممكنة، بينما يراها هابرماس اكثر قوة وتعبيرا عن العقلانية.

ثالثا: المكونات الثلاثة للفعل التواصلي:

ميز هابرماس في الأفعال الكلامية بين مكونات بنوية ثلاثة: الجزء القضوي والجزء المتضمن في القول والجزء الافصاحي، " فاذا ما استندنا إلى الشكل العادي لفعل كلامي ما، امكننا القول أن المكون القضوي هو ممثل عبر جملة مستقلة ذات محتوى قضوي، وكل واحدة من هذه الجمل يمكن ان تحول الى جملة تقريرية ذات محتوى وصفي .

1-المكون القضوي:

عند مقارنة الجزء القضوي مع المكونين الاخرين(المتضمن، الانجازي والفاضحي)، " برز أول الامر نحو من عدم التناظر، فبالنسبة الى كل جملة غير وصفية يوجد على الأقل جملة وصفية من شأنها ان تستنتج محتواها الدلالي، وعلى الضد من ذلك توجد جمل تقريرية حيث ان المحتوى الدلالي لا يمكن ان يحول الى جملة معيارية أو تقويمية وأو افصاحية "

2-المكون الافصاحي:

لا اريد ان اقرن الجزء الإفصاحي مع المكونين الآخرين للفعل الكلامي الا في شكل عابر فحسب. ومن جهة أيضا يمكن ان نلاحظ نحو من الاندماج، لكل جزء غير افصاحي يمكن عزو نية ذات دلالة مطابقة، مثلا على وجه التقريب يعبر متكلم ما، مع كل فعل كلامي توصيفي ثم بحسب القواعد، عن رأي أو عن قناعة ، مع كل عمل كلامي تعديلي تم بحسب القواعد، وهو يعبر عن شعور بالواجب ، وفي أي حال عن موقف يكشف رباطة باطنية مع المعايير السائغة "

3-المكون المتضمن- في- القول:

ان ما هو مهم قبل كل شيء بالنسبة إلى نظرية في المجتمع، هو كيف يتواشج الجزء المتضمن في القول مع المكونين الاخرين للفعل الكلامي، "تحليليا يمكن الفصل بين مستويين من التوجيه، أولا نستطيع أن نفهم الأجزاء المتضمنة في القول على انها التمثيلات اللغوية لطابع الفعل الذي يفى الفعل الكلامي، واستخدام الجمل التقريرية والافصاحية يعني ان المتكلم من طريقها ينفذ علا كلاميا "

4-الشكل التفكري للفعل الموجه نحو التفاهم والعلاقة بالانعكاسية بالذات:

"لكن اذا كان الموقف الانجازي هو الذي يؤمن الوحدة اثناء اغير الصيغ، فان الوعي بالذات العملي يحتفظ في العلاقة المتفكرة بالذات بأولوية معينة على الوعي بالذات الابدستي والوجداني. إن العلاقة المتفكرة بالذات هي التي تعلق أهمية التكليف لفاعل ما. والفاعل المكلف انما يسلك سلوكا نقديا تجاه ذاته في افعاله القابلة لان تأخذ ضيغة أخلاقية مباشرة فحسب، بل أيضا في تلفظاته العرفانية كما في تلفظاته الافصاحية "

رابعا: الثنائية البنيوية (عالم الحياة والنظام او المنظومة):

انطلاقا من منظور دروكايم حول التقسيم الاجتماعي للعمل، والتميز التضامن الالي والتضامن العضوي، خلص هابرماس الى ان: "الانتقال من شكل من التضامن المجتمعي الى شكل اخر يعني طبقا لذلك تحولا في أسس الادمج الاجتماعي في المجتمع. وفي حين أن المجتمعات البدائية مدمجة على توافق معياري أساسي، يتم الادمج في المجتمعات المتطورة عبر الترابط المنظوماتي بين مجالات الفعل المتخصصة في شكل وظيفي "

المجتمع يتكون من عالم الحياة و المنظومة في ذات الوقت، "كل نظرية في المجتمع، محصورة في نظرية في التواصل، هي خاضعة لتقييدات ينبغي ان تتم ملاحظتها. ان تصور عالم الحياة الذي يعرض لنا من المنظور المفهومي للفعل الموجه نحو التفاهم، هو ليس بالنسبة الى النظرية في المجتمع سوى مدى محدود.

مفهوم عالم الحياة:

"اعتبر مفهوم عالم الحياة متضايفا مع مسارات التفاهم، ان الذوات الفاعلة على نحو تواصلتي انما تتفاهم دائما في افق عالم حياة ما، وان عامل الحياة الذي هو من شأنهم ينبني على خلفية قناعات منتشرة بهذا القدر او ذلك، وغير إشكالية على الدوام"

ان عامل الحياة يحفظ العمل التأويلي الذي قامت به الأجيال السابقة، انه الثقل الموازن المحافظ ضد مخاطر التصدع والتشقق في المجتمع، يرتكز الفعل التواصلتي على مسار تأويلي تعاوني، ضمنه يتصل المشاركون في الوقت ذاته بشيء ما داخل العالم الموضوعي والعالم الاجتماعي والعالم الذاتي .

فإننا نستطيع ان نفكر في عالم الحياة ممثلا عبر مخزون من النماذج التأويلية، متوارث ثقافيا ومنظم لغويا" ان اللغة والثقافة هما المقومتان الاساسيان لعالم الحياة، " فلا يستطيع الفاعلون في شكل تواصلتي ان يتخذوا موقفا خارج العالم كما لا يستطيعون اتخاذه تجاه اللغة باعتبارها الوسط الذي يجري فيه مسارات التفاهم التي من طريقها يحفظ عالم الحياة نفسه. ومن جهة أخرى يستخدم تراثا ثقافيا فهو ياةصله أيضا "

"ان مفهوم عالم الحياة الذي تم تطويره في اطار نظرية التواصل من منظور المشاركين ليس قابلا مباشرة للاستعمال من اجل غايات نظرية، وهو ليس مناسباً لتحديد مجال الموضوع الخاص بالعلوم الاجتماعية، وبالتالي تلك المنطقة داخل العالم الموضوعي، التي تكون جملة الوقائع المتاحة تأويليا، التاريخية او الاجتماعية-الثقافية المعنى الاوسع " ، وهنا، نوع من التصور اليومي عن عالم الحياة.

ويدعو هابرماس الى تأسيس سوسيولوجيا فاهمة، " تمكن انصهار المجتمع في عامل الحياة، تربط نفسها بمنظور التأويلي الذاتي للثقافة المبحوث عنها في كل مرة، وهذا المنظور الداخلي من شأنه ان يمحو كل ما يؤثر من الخارج في عالم حياة اجتماعي-ثقافي ما" ، فالمجتمع يقدم نفسه من المنظور الداخلي لعالم الحياة باعتباره شبكة من التعاونيات التي تتم بواسطة التواصل.

الفرق بين عالم الحياة والمنظومة، " ان عقلنة عالم الحياة من شأنها ان تمكن من زيادة غي تعقد المنظومة، والذي يتضخم على شاكلة بحيث ضرورات المنظومة المطلقة العنان من شأنها ان تضرب القدرة على ادراك عالم الحياة التي تحولت بسببها الى شيء اداتي "،

- المنظومة وعامل الحياة امران يتمازيان، حين يزداد تعقد احدهما عقلانية الاخر، وليس على أساس ان احدهما يتميز بوصفه منظومة والآخر بوصفه عالم حياة فحسب، بل هما يتمازيان في الوقت ذاته الواحد من الاخر "

يتزايد التعقد في المنظومة وتزداد العقلانية في عالم الحياة، " ان عقلنة عالم الحياة يمكن ان تفهم باعتبارها تحريراً متتالياً لطاقة العقلانية الكامنة في الفعل التواصلي، وفي حين ان الفعل الموجه نحو التفاهم انما يكتسب استقلالاً بذاته اكبر دوماً ن السياقات المعيارية، فان الية التفاهم اللغوي، المطلب بها على نحو اكبر دوماً والمنهكة في اخر المطاف، يتم تعويضها من جهة اخرى بواسطة تواصلية مزروعة اللغة "

" في اطار لمجتمعات المنظمة فيقالب الدولة تنشأ أسواق البضائع التي يتم التحكم فيها عبر علاقات التبادل المعممة في شكل رمزي، أي عبر الوسط المالي. لكن هذا الوسط لا ينتج مفعولاً قادراً على هيكلة ممنزومة المجتمع حملها الا في فصل الاقتصاد عن نظام الدولة. "

المنظمة عصبها الدولة عن طريقة السلطة، والاقتصاد عن طريق المال.

" ان الاخلاق والقانون متخصصان في احتواء النزعات المفتوحة، على نحو بحيث ان أساس الفعل الموجه نحة التفاهم مع الادماج الاجتماعي للعالم الحياة، لا ينهاران، هما يؤمنان متوسى قادما من التوافق، اليه يستطيع المرء ان يلجا، عندما تنبجس الية التفاهم في مجال التواصل اليومي المعدل معياريا .."

"الفعل التواصلي تفاعلاً متوسطاً، هذا التفاعل يتكون حسب معايير صالحة الزامياً، تحدد توقعات سلوكيات متبادلة، يجب ان تفهم ويعترف بها من قبل ذاتين فاعلتين على اقل تقدير والمعايير الاجتماعية تزداد قوة من خلال التوافقات " ، ويتموضع في التواصل عبر اللغة المتداولة.

أ-التمييز بين التجربة الحسية (ملاحظة) وبين التجربة التواصلية(الفهم)، هذا الذي ندركه من الأشياء والاحداث، وانما هو كنمط تجربة بدئي تتطلب الموضوعية ويمكن ان يعبر عنها في تأكيدات.

ب-تمييز موضوعات التجربة التواصلية الممكنة والتجربة الحسية الممكنة، التوصيفات (التي تعيد التجارب الحسية) نجعلها في لغة أخرى على انها قصص (تعيد تجارب تواصلية

ج-مرجعية الفعل التبايني للتجربة (التمييز بين قبلية التجربة البراغمية والتواصلية)...ان تحليلها صورياً لموضوعات التجربة الحسية والتواصلية من جهة، والفعل الاداتي والتواصلي من جهة ثانية، يجب ان

يؤكد هذه التجربة الترنسندانتلية للتجربة والفعل، التي تؤكد كعلاقة مقولاتية في علم النفس بياجي وانثربولوجيا غيلن والفلسفة ديوب وهایدغر

د-براكسيس الحياة مقابل براكسيس البحث

ه-المصالح التي توجه المعرفة، الحقائق لا تكون لان الحقائق ليست كيانات في العامل، وانما ترابطات بين الاقوال على مستوى المحاجة.

و-مصلحة المعرفة المحررة وتدمير القبلية لموهومة، في الوقت الذي يتأسس فيه مصالح المعرفة العلمية والتقنية في بني (غير متغيرة) التجربة وبني الفعل المتأصلة، وتحديدًا عندما تكون مرتبطة بتكوينات المنظومات الاجتماعية، فان مصلحة المعرفة المحررة يكون لها حالة مستبطنة، وهي تتضمن علاقة المعرفة النظرية مع براكسيس الحياة أي مع مجال موضوعات ينشأ بداية ضمن شروط تواصل مشوه نسقيا وضمن شروط قمع مشرعنا ظاهريا .

في نظريته عن المجتمع، يميز هابرماس بين البيئة الاجتماعية أو "عالم الحياة" (الذي يعيش فيه الإنسان حياته اليومية من خلال إقامة علاقات مباشرة أو غير مباشرة مع الآخرين) وبين الأنظمة الاجتماعية (الاقتصادية والسياسية والقانونية-المعيارية) باعتبارها أنماط تفاعل منظمة ومؤسسية بين الأفراد.

ينفصل النظام عن العالم المعيش، وتشكل مؤسسات حديثة جديدة للتوسط بين الناس، وهي مؤسسات قائمة على مبادئ أوسع للتكامل الاجتماعي والمعرفة والشرعية والتنظيم.

تُضيق هذه المؤسسات النظامية نطاقها العقلاني بمرور الوقت، فتصبح ضيقة للغاية؛ أي أنها تتحول إلى عوامل حفظ وعرقلة اجتماعية، فتفقد شرعيتها. تهيمن عليها توجهات المال والسلطة، والنزعة النقدية، والبيروقراطية، والتسييس. ومن خلال عملية التحديث والترشيد الاجتماعي، يظهر النظام بمرور الوقت كعامل عرق

..إن المشكلة الرئيسية للمجتمع الحديث هي "كيفية إنقاذ العالم الاجتماعي من اندفاع بنية النظام، أي ما هي الشروط اللازمة لضمان وتطوير استقلالية الأفراد في المجتمعات التي لم تُقهر بعد؟ ووفقًا لهابرماس، ينبغي البحث عن المخرج في تأكيد "العقلانية التواصلية"، وفي تعزيز استقلالية المجتمع المدني، وفي توسيع الحيز المخصص للعمل الحر والتواصل بين الأفراد الذين، من خلال التواصل المتبادل، يتخذون قرارات عقلانية مبنية على الحجج العقلانية والتوافق بدلاً من تعزيز أشكال الحكم الاستبدادي وفرض النظام.

محاضرة رقم 06: النظرية النسوية في علم الاجتماع

تمهيد

أولاً: النظرية النسوية: المفهوم والسياق التاريخي

ثانياً: تيارات النظرية النسوية

1- النسوية الليبرالية

2- النسوية الراديكالية

3- النسوية الماركسية

4- النسوية ما بعد الحداثية

ثالثاً: مفاهيم أساسية في النظرية النسوية

تمهيد :

علنيا ان نميز بين ثلاثة قضايا عندما نشير الى النظرية السنوية، أولا، النظرية النسوية كمعرفة نضالية سياسية واجتماعية ضد الرجال والهيمنة الذكورية، ثانيا، النظرية السنوية كنظرية في المعرفة، ثالثا، الفلسفة النسوية، ورابعا، النظرية النسوية في علم الاجتماع. وما يهمننا هنا، النظرية النسوية في علم الاجتماع، وهذه ايضا سنجد صعوبة كبيرة في فصلها عن باقي القضايا النظرية الأخرى، وداخل النظرية النسوية ذاتها ، سنجد العديد من النظريات الفرعية، الليبرالية، الماركسية، والراдикаلية ...

فالنسوية: إنها عملية وعي تبدأ فرديا، ثم تتحول إلى جماعية، تليها ثورة ضد النظام القائم للعلاقات بين الجنسين والوضع التابع الذي تحتله المرأة داخل مجتمع معين في لحظة معينة من تاريخه. وهي أيضاً نضال لتغيير هذه العلاقات وهذا الوضع. هناك طريقتان رئيسيتان لتفسير سؤال "ما هي النسوية؟". الأولى هي تفسيره على أنه سؤال عن جوهرها العام - ما هو مضمونها؟ ما هو موضوعها؟ ما الذي تدافع عنه؟ لكن هناك سؤال آخر لا يقل أهمية، وهو: ما هي النسوية، بمعناها الأساسي؟ يمكن أن يكون للأشياء المختلفة "مضمون"، أو أن تكون "تدور حول" شيء ما - الكتب، الأفلام، الأقوال، الإيماءات.

هناك أشكالاً وتيارات عديدة منها: النسوية البريطانية، الأمريكية، الفرنسية، الأفريقية... وكل نظرية لها قضاياها ومرتكزاتها، بالإضافة إلى النقاشات حول هل تعتبر النسوية نظرية علمية، بما أنها نظرية متمركزة حول جنس انساني واحد؟ وعليه، سنحاول في هذه المحاضرة ان نتناول هذه النظرية بالإشارة إلى سياقاتها التاريخية وبرز تياراتها واهم مفاهيمها.

أولاً: النظرية النسوية: المفهوم والسياق التاريخي

تعريف النظرية السنوية: "لقد توسّع مفهوم النسوية من مجرد تحديّ تبعية المرأة للرجل والدفاع عن حقوقها المتساوية، إلى رؤية العالم الاجتماعي وفهمه من منظور المرأة، وصولاً إلى تغيير أنظمة القمع القائمة على علاقات الحكم الذكورية الغربية. ولا يزال تعريف النسوية متغيّراً باستمرار، فهو ليس ثابتاً ولا موحّداً، بل يخضع دائماً لفهم كل منظر. إن النظرية النسوية هي مجموعة من الكتابات التي تحاول ان تصف وتشرح وتحلل ظروف حياة النساء.

- تتداخل الدراسات النسوية، التي تسعى إلى تفسير مكانة المرأة وهويتها في المجتمع، بشكل جوهري مع التساؤلات السوسيولوجية المتعلقة بالبنية الاجتماعية والثقافة والتفاوت الاقتصادي. وقد تساءلت

الباحثات النسويات في علم الاجتماع، شأنهن شأن نظرائهن في التخصصات الأخرى، عن كيفية بناء النوع الاجتماعي، وكيفية تنظيمه في المؤسسات الاجتماعية، وكيف يمكن إحداث تغيير اجتماعي.

وقد طُرحت فكرة أن الاختلافات بين الجنسين ليست طبيعية أو بيولوجية، بل مكتسبة منذ الطفولة. وتُحافظ على هذه الاختلافات مؤسسات اجتماعية رئيسية كالتعليم والزواج والثقافة الشعبية ووسائل الإعلام والدين والحكومة والقانون. ويُعد مفهوم النظام الأبوي، أي التنظيم المنهجي لهيمنة الذكور، مفهوماً مفيداً للعديد من المنظرات النسويات.

في الواقع، تُثير العلاقة بين النسوية والنظرية تساؤلات. أولاً، تُشير النظرية عادةً إلى المعرفة المجردة. ومع ذلك، بما أن النسوية متجذرة في تجربة المرأة اليومية، يبدو المفهوم غير متوافقين، "النسوية بشكل عام هو كل جهد نظري أو عملي يهدف إلى مراجعة واستجواب أو نقد أو تعديل النظام السائد في البنيات الاجتماعية، الذي يجعل الرجل هو المركز، هو الإنسان، والمرأة جنساً ثانياً أو آخر".

إذا رجعنا إلى السياق التاريخي، فإننا نجد أن الحركة النسوية بدأت في الفكر الغربي منذ القرن التاسع عشر، وتم لأول مرة صياغة مطلع السنوية *feminisme* سنة 1895، لعبير عن تيار نضالي وفكري جديد، سيتشعب إلى اتجاهات وفروع عديدة، ونرصدها هنا حسب مؤرخي هذا التيار أن هناك ثلاثة موجات مرت بها النسوية.

-الموجة الأولى، التي امتدت حسب مؤرخي هذه الرجة النسائية من 1792/1850-1920: "كانت الغاية النهائية للنسوية في موجتها الأولى هي نيل المرأة بعضاً من الحقوق العامة التي يتمتع بها الرجل؛ لذلك دأبت على تأكيد المساواة بين الجنسين وأن الفوارق النوعية للمرأة هامشية لا تجعلها أقل، ولا تحول دون تلقيها العلم، وممارستها العمل والحياة السياسية، والتصرف في أموالها مثل الرجل.

الموجة الثانية: امتدت من 1920 إلى غاية 1980

بعد فترة الركود، بسبب عوامل تم ذكرها سابقاً، وكذلك الحقوق التي نالتها النساء، إلا أن هناك موجة جديدة من النسوية بدأت في التشكل في مطلع الستينيات من القرن العشرين، مع النمو الاقتصادي الرأسمالي وصعود الولايات المتحدة الأمريكية، وحاجة النظام إلى انضمام النساء إلى أسواق العمل، كما تزامنت هذه الحركة النسوية مع تنامي الحركات الاجتماعية الجديدة، كالحركات المناهضة للاستعمار، وحركات السود، وحركات الطلابية في أيار 1968.

-الموجة الثالثة أو ما بعد السنوية من 1980 إلى يومنا هذا

نسجل في هذه المرحلة، ان هذه الموجهة ورثت انقسامات حادة على المستوى السياسي بين الفاعلين والناشطين في الحركة السنوية في مختلف بلدان العالم، واثير النقاش حول كيفية الانتقال من النزعة المطالبة السياسية والاجتماعية والمساوتية الى التأسيس الأكاديمي للنسوية، من حركة اجتماعية الى حركة علمية وفلسفة ونظرية في العلوم الاجتماعية، وعلى مدى الثلاثين عاما منذ بداية الموجة النسوية الثانية اكتسبت النسوية طابعا ااكاديميا سواء داخل مجال الدراسات السياسية او في غيرها من المجالات، اما من حيث كونها هوية سياسية فقد تصدعت على جبهة الخلافات المتعددة بين النساء .

ثانيا: تيارات النظرية السنوية

1-النسوية الليبرالية:

ظهرت النسوية الليبرالية المعروفة أيضا بالنسوية المساواتية، في القرنين السابع عشر والثامن عشر. كانت هذه فترة تحولات اجتماعية كبيرة في الدول الغربية، شملت الثورتين الفرنسية والأمريكية، والانتقال من المجتمع الإقطاعي إلى المجتمع الصناعي، ومن الدولة الملكية إلى الدولة الديمقراطية القائمة على سيادة القانون، وتطور الرأسمالية، وغيرها. وبرزت حركات اجتماعية كبرى، مثل حركات العمال، وحركات إلغاء العبودية، والحركات النسوية.

نشأت الحركة النسوية الليبرالية في الدول الغربية نتيجةً لزيادة النساء المتعلمات واعتناقها الأفكار الليبرالية. وتتبنى النسويات الليبراليات فلسفة الليبرالية القائمة على المساواة بين الجنسين، إذ يتم اضطهاد المرأة عبر حرمانها من الحقوق السياسية والمدنية. ولذا، يمكن مواجهة هذا الاضطهاد والحرمان بإصلاحات اجتماعية تهدف إلى تكافؤ الفرص بين النساء والرجال، وبذلك، يتحقق "تحرير" المرأة من خلال وضع حد للممارسات التمييزية والسعي الحثيث نحو المساواة في الحقوق.

تقوم النسوية الليبرالية على ركائز أساسية، وهي:

المساواة الجندرية: لا ترى النسويات الليبراليات ان الاختلاف الجنسين بين الرجل والمرأة مبررا لعدم المساواة بين الجنسين، لذلك من مبادئها الأساسية معاملة المرأة على قدم المساواة مع الرجل، ويشمل حقوقها السياسية والمدنية، والحصول على اجر مساو للرجل والمساواة في الترقيات الوظيفية والادارية في الزواج

المساواة في تمثيل المرأة: تؤمن النسويات الليبراليات بأن للمرأة الحق في أن تكون فاعلة في المجتمع مثل الرجل، وبالتالي أن يكون لها تمثيل متساوٍ في مكان العمل والسياسة والإعلام.

إصلاح النظام الاجتماعي: لا تشكك النسويات الليبراليات بالضرورة في نظام المجتمع ككل، بل يؤمنن بقدرته على الإصلاح. وهنّ يعتقدن أن العدالة بين الجنسين تتحقق على أفضل وجه من خلال تعديل المؤسسات الاجتماعية والأنظمة السياسية القائمة. ويعتمدن على الدولة لتحقيق المساواة، ويدعمن سياسات التمييز الإيجابي والتشريعات التي تمنح حقوقًا وفرصًا متساوية للرجال والنساء.

الفردانية: تتبنى النسوية الليبرالية نهجًا فرديًا بدلًا من نهج جماعي. وهذا يعني منح الحقوق للنساء كأفراد، باعتبارهن متساويات في الحقوق، وبالتالي متساويات في الاستحقاق، بدلًا من منح الحقوق لمجموعة كاملة. مفهوم التمييز الجنسي: يُعتقد أن النسويات الليبراليات هنّ من روجن لمفهوم "التمييز الجنسي" للإشارة إلى الأفكار والممارسات الاجتماعية التي تُبقي المرأة في دور ثانوي.

2- النسوية الراديكالية:

نشأت هذه الحركة في الستينيات من القرن الماضي، حيث نظرت النشأة إلى ذواتهن كطبقة ثانية في مجتمع تهمين عليه طبقة الذكور، تحت مسمى النظام الأبوي، لذلك سعت النسوية الراديكالية على انتقاد الهيمنة الأبوية الذكورية، بكل مظاهرها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إنها صريحة مدوية النسويات الراديكاليات اللواتي راين هيمن الرجال في العالم الاجتماعي وفي العامل المنزلي وفي كل مكان؛ الفضاءات العمومية ومختلف المؤسسات.

3- النسوية الماركسية:

تستخدم النسوية الماركسية أو المادية المساهمات النظرية لمفكري القرنين التاسع عشر والعشرين لفهم آليات اضطهاد المرأة. وكانت غايل روبين من أوائل ممارسيها، حيث تبنت في مقالها الرائدة "الاتجار بالنساء: ملاحظات حول الاقتصاد السياسي للجنس" نظريات كارل ماركس، وسيغموند فرويد، وجاك لاكان، وكلود ليفي ستروس، وطورتها لفهم تكوين وإعادة إنتاج ما تسميه "نظام الجنس/الجندر". وبالمثل، تستخدم غاياتري تشاكروفارتي سبيفاك أعمال ماركس، وجاك دريدا، وجيل دولوز لتحليل معنى التبعية في سياق تجربة المرأة في الهند وغيرها. سنناقش أولاً مقالة غايل روبين، ثم نتقل إلى سبيفاك.

- وجدت روبين أن العديد من تفسيرات النسوية الراديكالية لقمع المرأة غير مرضية، لا سيما تلك التي زعمت وجود أنظمة أمومية ما قبل التاريخ أُطِيع بها بثورة أبوية، أو التفسير الجوهري للعدوانية الذكورية الفطرية باعتبارها سببًا لقمع المرأة، فإنها تسعى إلى فهم وضع المرأة الذي يُبرز موقعها ضمن علاقات اجتماعية معينة للإنتاج والتكاثر. ولهذا السبب، فهي مدينة لكارل ماركس، الذي أصرّ في مناقشته للبنى الطبقية على تحليل

يُقرّ بالخصوصية التاريخية. في هذا، تدين روبين لكارل ماركس، الذي أصرّ، في مناقشته للبنى الطبقية، على تحليل يُقرّ بالخصوصية التاريخية للطبقة وترتيبات العمل. إذ تسأل: "ما هي العلاقات التي من خلالها تصبح المرأة امرأة مضطهدة؟"، تتخذ روبين مناقشة ماركس الموجزة لأنطولوجيا رأس المال كراس مال نموذجًا نظريًا لتنظيم مناقشتها الأولية.

4- النسوية ما بعد الحداثة:

نطوي ما بعد الحداثة على أحدث أزمة عقلانية، والتي أصبحت أحداث مايو 1968 الفرنسية وما تلاها رمزًا لها. بدايةً، هناك ادعاء منهجي بأن ما بعد الحداثة قد مكّنت من نشأة نظرية معرفية نسوية. فبدون الأزمة المتعلقة بالذات العارفة غير المحددة (وبالتالي التأسيسية)، لكانت "النظرية المعرفية النسوية" مصطلحًا متناقضًا للغاية. كان على الذات العارفة أن تتخذ شكلاً (شكل الرجل) لكي تظهر العارفة النسوية

من منظور تاريخي، تُرى العلاقة بشكل مختلف: فمع تصوّر الذات الموصوفة - الذات الأنثوية، والذات النسوية، والذات السوداء، والذات ما بعد الاستعمارية، إلخ - وُجد أن العقل في أزمة. إنّ النظريات المعرفية النسوية وغيرها من النظريات المعرفية النقدية، التي نشأت في أعقاب أحداث مايو 1968 بعد "التحوّل المعرفي" في الحركات الاجتماعية، هي التي تسببت في أزمة العقل هذه، وليس العكس. هنا، يتطور الجدل في اتجاه معاكس: فمع ادعاءات النسويات بالحقيقة، تم التشكيك في المعرفة القادمة من مكان مجرد (في المقابل، انتقدت النسويات ما بعد الحداثة لتدشينها والاحتفاء بـ "موت الذات" عند المنعطف التاريخي الذي حصلت فيه النساء والآخرين على مكانة الذات.).

قد مكّن ما بعد الحداثة، النسويات من التنظير حول ذاتية المرأة وتفكيكها في الوقت نفسه. هذه الازدواجية ذات أهمية سردية بالغة: إذ يُزعم أن النسوية لم تمتلك قط موضوعًا موحدًا، وأن جميع النظريات المعرفية النسوية الثلاث قد نشأت دفعة واحدة. تفتقر المناهج البنيوية إلى هذه الازدواجية، ولأن التفكيك غير موجود معرفيًا، فقد وقعت التجريبية النسوية والمنظور النسوي في فخ العالمية.

ثالثًا: مفاهيم أساسية في النظرية النسوية

1-النوع الاجتماعي:

لم يكن مفهوم الجندر بمعناه الحالي وجود قبل سبعينات القرن الماضي، حيث كان الباحثون يستخدمون علم الاجتماع المرأة، أو يركزون على الأدوار الجنسية في النظم الاجتماعية التقليدية والحديثة،، نشأ هذا المفهوم مع الموجة الثانية للحركة النسوية، التي انتقدت علم الاجتماع الأكاديمي، وراته انه يهمل المرأة كموضوع للبحث السوسيولوجي.

الجندر أو الجنوسة من المفاهيم المحورية في النظرية السنوية وفي علم الاجتماع النوع، " يشير النوع الاجتماعي الجندر الى تلك السلوكيات والممارسات التي تحدد الافراد في المجتمع باعتبارهم ذكورا او اناثا في سياقات اجتماعية وثقافية معينة،" وتحتج النظرية النسوية على تنوع أدوار المرأة باختلاف الثقافات والمجتمعات والحضارات لدليل على تقسيم جنسي اجتماعي وليس بيولوجي كما يزعم البعض الباحثين

- يعني الجندر تقسيم البشر الى فئتين هما: الرجال والنساء. فمن خلال التفاعل مع أعضاء الاسرة والتنشئة الطفولية. فمن خلال التفاعل مع أعضاء الاسرة والتنشئة الطفولية وتأثير الاقران في المراهقة والادوار المهمة والاسرية المجندرة. يتم بناء النساء والرجال اجتماعيا لكي يكونوا مختلفين من حيث السلوك والاتجاهات والانفعالات.

الجندر ليس مشكلا دوما على نحو متسق او على محور مستمر في سياقات تاريخية مختلفة، ولا الجندر يتقاطع مع الاشكال العرقية والطبقية والاثنية والجنسية والجهوية للهويات المشكلة في حيز الخطاب، ونتيجة لذلك يصبح من المستحيل فصل الجندر عن التقاطعات السياسية والثقافية التي في نطاقها يتم انتاجه والمحافظة عليه بوتيرة لا تتغير.

2-مفهوم النظام الأبوي :

يعد واحد من المفاهيم الأساسية في النظريات السنوية بمختلف تياراتها الفكرية والسياسية، ويشير الى: " نظام اجتماعي للعلاقات بين الجنسين (الرجال والنساء) حيث لا مساواة بينهما. وهي علاقات مضمرة في نطاق المؤسسات الاجتماعية والبنى الاجتماعية. يدمج مفهوم النظام الابوي مفهوم العلاقات بين الجنسين، ويتجاوز في ناحيتين، أولهما، انه يتضمن عدم المساواة التي توجد بشكل روتيني في هذه العلاقات، وثانيهما، انه يلفت الى الترابط بين السمات المختلفة بينهما، والتي تشكل طلبها نظام اجتماعيا.

3-مفهوم التمييز واضطهاد النساء :

. تنبع أوجه عدم المساواة في مختلف مجالات الحياة من النظام الأبوي. عملياً، لا تتمتع المرأة بنفس الحقوق والفرص التي يتمتع بها الرجل (تمييز)؛ وتتعرض للعنف الجسدي والنفسي (اضطهاد)؛ ولا تحصل على فرص متكافئة في الوصول إلى الموارد الاقتصادية التي تساهم في إنتاجها، وهو ما يُعد ظلماً .

- ساهمت الصور النمطية السلبية عن المرأة في ترسيخ تحيز متناقض أو موقف سلبي تجاهها. يتألف هذا التحيز من عنصرين واضحين: التمييز الجنسي العدائي والتمييز الجنسي الحميد. يتوافق الأول مع المفهوم التقليدي للتمييز الجنسي، وهو موقف سلبي عدواني تجاه المرأة، بينما يمثل الثاني مجموعة من المواقف العاطفية المترابطة تجاهها. يستند هذا التمييز الجنسي الحميد إلى الصور النمطية للجنسين، ويدفع الرجال إلى اعتبار المرأة ضعيفة وحساسة، وخائفة، وبحاجة إلى حماية الرجل. أما التمييز الجنسي العدائي، فينشأ عندما تتنافس المرأة مع الرجل وتصبح تهديداً لهيمنتته.

عملت النسويات المتأثرات بالماركسية على النوع الاجتماعي للإشارة إلى اللامساواة الاجتماعية، إن النظام الذي ينظم العلاقة الاستغلالية بين الذكور والإناث هو الذي "يخلط كل شيء"، مُنتجاً مزيجاً من "الجنس، والشخصية، والجنسانية، والإنجاب". وبالتالي، فإن تصور ضرورة العمل على الجنسانية، كمؤسسة أو كمجموعة من الممارسات الجنسية، من أجل العمل على النوع الاجتماعي، يُعد بمثابة إضفاء الشرعية على هذا المزيج، والوقوع في فخ "أيديولوجية النوع الاجتماعي".

-